مقاليد Maqalid

فكر

إدغار موران

إلى أين يسير العالم؟

ترجمة

أحمد العلمي

الملحقية الثقافية السعودية في فرنسا
BUREAU CULTUREL SAOUDIEN EN FRANCE

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي

OÙ VA LE MONDE?

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

L'Herne

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

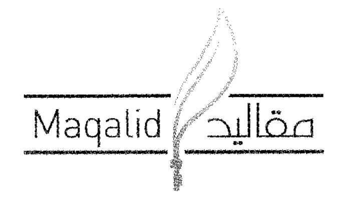
إلى أين يسير العالم؟

تأليف

إدغار موران

ترجمة

أحمد العلمي





بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-747-1



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

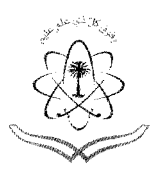
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp. com. lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www. asp. com. lb





وزارة التعليم العالي

المملكة العربية السعودية

54, Avenue Hoche - 5 éme étage

Paris 75008 France

Tel (+33) 1 56 60 50 00 - Fax (+33) 1 56 60 55 27

لتنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

استهلال

«تدور رحى المعركة اليوم على صعيد الفكر»

إدغار موران

ربما كان بإمكان إدغار موران أن يكتفي بالموهبة التي يتمتع بها وأن يترك للخلف - في العلوم الاجتماعية - بعض الكتابات اللامعة بصدد مواضيع غير منتظرة مثل الموت، أو النجوم أو الإشاعة[1]. وربما أن هذا سيكون كافيًا لضمان شهرة باحث غالبًا ما يمارس الإبداع.

لكن ما هو الأمر المعتاد بالنسبة لمفكر يهاجم الأفكار المبتذلة، و«يتميز بمقاومة ذهنية شبه بيولوجية»؟ بعد الحرب العالمية الثانية التي شارك فيها، لم يعمل إدغار موران على الاحتماء بأي عنوان من عناوين كتبه التي تشكل في الغالب مساره الجامعي، بل بنى في عزلة، وبصبر، عملاً فكريًا أصيلاً، وهو يشكل أحد الأعمال القوية خلال حقبتنا، والذي يجعل من مسألة «تعقد الظواهر »مشكلاً أساسيًا وأنموذجا جديدًا.

إن التمثلات التقليدية للإنسان قد ساهمت في تجزيئه وتقسيمه حارمة إياه من الغنى المتعدد الأبعاد الذي يتمتع به (فهويته هي في

---

(1) الإنسان والموت (1951)؛ النجوم (1957)؛ ضوضاء أورليان (1969). كل الهوامش الواردة في أسفل النص للمترجم، باستثناء هامشين لإدغار موران سنشير إليهما.

الـــوقت نفـــسه بيولوجية وسيكولوجية واجتماعية). يتعلق الأمر الآن وبـــشكل مـــستعجل بإعـــادة ربـــط ما شتتته علوم الإنسان والعلوم الكلاســـيكية. وهو مشروع هائل يعبئ كل المعارف المتوفرة ويتطلب وضع أنماط جديدة من التفكير. وقد قال ليفي ستروس أن هدف علوم الإنسان ليس هو الكشف عن الإنسان، بل تفكيكه. وعلى عكس ذلك يحاول إدغار موران أن يعطي للإنسان حياة وجسدًا، بوضعه من جديد في قلب رواية العالم الكبرى.

يـــتعين إغـــناء الإنـــسان بكل تناقضاته. وعلى الفكر أن يكون «حواريًا»، قادرًا على ترك التناقضات عائمة، وهي تتكامل وتتصارع. ذلـــك هـــو الدرس الذي كان يلقنه سلفًا هيراقليطس: «يتعين أن نحيا موتًا، وأن نموت حياة». إن الإنسان ليس فقط إنسانًا «عاقلاً»[1] (من حيث كونه يعرف ويعرف أنه يعرف)، أو «صانعًا»، أو «اقتصاديًا»[2] (حاســـبًا، ولا تحـــركه سوى المصلحة الذاتية)، وهي كلها تصورات اختزالية (وهي تصورات تعلي بشكل نرجسي من قيمة الإنسان) تضع الإنـــسان في مجال منفصل، وتجعله منعزلاً عن الكل. إن الإنسان أيضًا وبـــشكل لا مـــندوحة فـــيه كائن «مجنون» (من حيث أنه يبتكر، أو يتخيل، أو يقتل) وهو كذلك كائن «لاهٍ» (إنه يتسلّى، أو يتحمس أو يستهلك ذاته).

إنهـــا نـــــزعة إنسانية جديدة بدأت ملامحها تبرز، نـــزعة يمكن وصـــفها بأنها نـــزعة تراجيدية، إذا ما حرصنا على أن نفهم من ذلك كل ما يقاوم أي تصالح، كما يعارض كل تفاؤل ساذج. وهي نـــزعة إنسانية تمت (إعادة إحيائها)، ولم تعد تشكل التبرير الأنثربولوجي لتأليه

---

(1) باللاتينية في الأصل: Sapiens

(2) باللاتينية في الأصل.

الإنسان الذي سيكون محكومًا عليه بالسيطرة على كوكب الأرض (صحبة البرنامج الانتحاري للحداثة: «لنصبح سادة الطبيعة ومالكيها»). لكنها نزعة إنسانية ذات بعد كوكبي، تحمل وعيًا بأن «الأرض – الوطن» هي عبارة عن قدرنا المشترك سواء في الأصل أو الفناء أو الضياع.

وهذا هو ما سيقود إدغار موران إلى امتداح شكل من أشكال إنجيل الضياع: فما دمنا ضائعين (في هذا الكون الشاسع)، وما دام محكومًا علينا بالعناء وبالموت، فإن من واجبنا أن نكون إخوة. وهي أُخُوَّة أكثر من كونها تضامنًا. إنها مفتاح الألفية القادمة من أجل سياسة حقيقية للحضارة.

فرانسوا ليوني



ترابط الماضي والحاضر والمستقبل

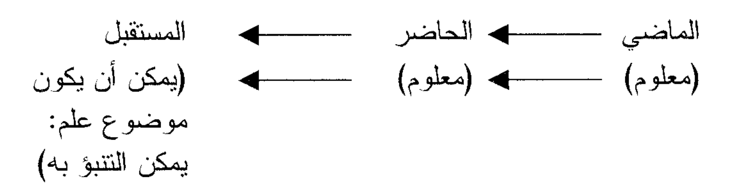
كان استشراف المستقبل الذي ساد في سنوات الستينيات يطرح أن الماضي معلوم علمًا يقينيًا، وأن الحاضر بطبيعة الحال معلومٌ، وأن أساس مجتمعاتنا ثابتٌ، وأن المستقبل سينبني على هذه الأسس المتينة داخل وبفضل تنمية التوجهات المهيمنة للاقتصاد، والتكنولوجيا، والعلم. وهكذا اعتقد الفكر التقنو - بيروقراطي أن بإمكانه التنبؤ بالمستقبل. بل اعتقد، في إطار تفاؤله المعتوه، أن القرن الواحد والعشرين سيقطف الثمار الناضجة لتقدم الإنسانية.

إلا أن المشتغلين باستشراف المستقبل شيدوا مستقبلا خياليًا انطلاقًا من حاضر مجرد. فالحاضر الزائف المسمن بالهرمونات حل، بالنسبة إليهم، محل المستقبل. والأدوات الفظة، والمبتورة، والباترة التي كانت تساعدهم على إدراك الواقع وتصوره أعْمَت بصيرتهم لا عن رؤية ما ليس متوقعًا فحسب، بل وعن رؤية ما هو متوقع. ولن أقاوم هنا متعة الاستشهاد بخبير الخبراء السيد روبيرت جيبرا[1]، رئيس **الجمعيات الإحصائية** لفرنسا بقوله: «لقد أخطأ الخبراء بانتظام منذ عشرين سنة»

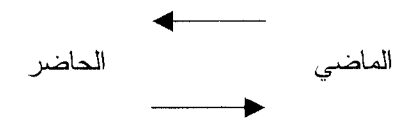
وهنا يجب، مرة أخرى، من أجل تصور دقيق للصيرورة التاريخية، أن نحل تصورًا مركبًا محل التصور التبسيطي السائد. إن التصور

(1) مهندس فرنسي ولد سنة 1904 وتوفي سنة 1980.

التبسيطي يعتقد أن الماضي والحاضر معلومان، وأن عوامل التطور معلومة، وأن مبدأ العلية مبدأ خطيٌّ، والمستقبل يمكن، انطلاقًا من ذلك، التنبؤ به.



والواقع أن هناك دائمًا عملية تفاعل تبادلي بين الماضي والحاضر، حيث إن الماضي لن يساهم في معرفة الحاضر فحسب، وهو أمر بديهي، بل إن تجارب الحاضر تساهم في معرفة الماضي، ومن هنا تعمل على تغييره.



إن الماضي يُشيَّد انطلاقًا من الحاضر، الذي ينتقي ما يبدو، في نظره، تاريخيًا، أي بالضبط ما تطور في الماضي ليسهم في إنتاج أو صناعة الحاضر. فالنظرة الاسترجاعية تقوم باستمرار – وبكل أمان – بمهمة استشرافية: فالمؤرخ الذي يدرس ما جرى من أحداث سنة 1787 – 1788 من [تاريخ فرنسا] يتوقع بنظر ثاقب ما يهيؤ الانفجار اللاحق (الذي هو بطبيعة الحال انفجار لم يكن في علم فاعلي وشهود هذه الحقبة التمهيدية للثورة). وهكذا يكتسي الماضي معناه انطلاقًا من النظرة البَعْدية التي تمنحه معنى التاريخ. وذاك هو مصدر التبرير الدائم واللاشعوري الذي يدرج الصُّدَف تحت غطاء الضرورات، ويحول اللامتوقع إلى أمر قابل للوقوع، ويقضي على الممكن الذي لم يتحقق

لـــصالح حتمية حصول ما حدث. وما دام الحاضر، إضافة إلى ذلك، يتغير، والـــتجارب تتعاقب، فذلك لأنه في كل حاضر جديد، تحصل، كما رأينا ذلك بصدد الثورة الفرنسية، إعادة تركيز تعدل صورة الماضي الذي لن تـــتم باستمرار إعادة كتابته من خلال القرن التاسع عشر فحسب، بل ســـتعاد، أكثر من أي وقت مضى، كتابته في القرن العشرين من خلال تجارب الاشتراكية (Jaurès)[1]، والبلشفية (Mathiez)[2]، والستالينية (Soboule)[3]، والفوضوية (Guérin)[4]، وتجربة التخلص من الستالينية (Furet[6]/Richet[5])[7].

---

(1) جـــان جوريس، اشتراكي فرنسي ولد سنة 1859تميز فكره السياسي بدعوته للـــسلم ومعارضـــته لاندلاع الحرب العالمية الأولى. لقي حتفه على يد أحد مناضلي اليمين المتطرف في باريس سنة 1914.

(2) مؤرخ فرنسي ولد سنة 1874 وتوفي سنة 1932. تدور جل كتبه حول الثورة الفرنسية.

(3) مؤرخ فرنسي ولد بالقرب من مدينة وهران سنة 1914 وتوفي سنة 1982، انتمى إلى الحزب السيوعي الفرنسي سنة 1939. وعرف بأعمال عديدة حول الثورة الفرنسية.

(4) دانـــيال غيـــران مفكر فرنسي ومنظر للفكر الثوري، ولد سنة 1904 وتوفي سنة 1988، بدأ مشواره السياسي مناضلاً ماركسيًا، لكنه سرعان ما انفصل عـــن التوجه الماركسي الأرثوذكسي لينتمي إلى ما يعرف بالتيار الفوضوي الداعي إلى التحرر من قيود كل سلطاتة متعالية.

(5) فرانسوا فوري (François Furet) مؤرخ فرنسي ولد سنة 1927 وتوفي سنة 1997. له العديد من الأعمال بالمتعلقة بالثورة الفرنسية وانتخب قبيل رحيله عضوًا في الأكاديمية الفرنسية.

(6) دونـــي ريشيه (Denis Richet) مؤرخ فرنسي ساهم مع فرانسوا فوري في صياغة قراءة للثورة الفرنسية بعيدًا عن الأطروحة الماركسية الأورثوذكسية، ولد سنة 1927 وتوفي سنة 1989.

(7) هامش لإدغار موران: إننا نعرف معرفة يقينية تواريخ سياق أحداث الثورة الفرنـــسية. لكن معنى وأثر الوقائع الحاسمة لما يسمَّى بالثورة ما زالا محط

وهكـــذا إذن نكتشف ثغرَة في الماضي، تقابلها ثغرةً في الحاضر: فمعرفة الحاضر تستوجب معرفة الماضي التي تستوجب بدورها ضرورة معرفة الحاضر.

ومن جهة أخرى، وبالخصوص، فإن الوهم الأكبر هو الاعتقاد بأنـــنا نملـــك معرفة عن الحاضر لأننا موجودون فيه. وكل المجهود المـــبذول في هـــذا الكـــتاب، بمعنى ما، يتمثل في صعوبة تحديد معالم الحاضر.

والحال أن المستقبل يتولد من الحاضر ومعنى ذلك أن الصعوبة الأولى للـــتفكير في المـــستقبل هي صعوبة التفكير في الحاضر. والانعماء تجاه الحاضـــر هي التي تجعلنا بالفعل[1] لا نبصر المستقبل. وهكذا فقد كان واضـــحًا، بعد سنة 1950، أننا وضعنا اقتصادنا في حالة تبعية للبترول، الذي هو ذاته في حالة تبعية لأمم تراجعت تدريجيًا تبعيتها للغرب، الذي أصـــبح هو ذاته تابعًا بشكل حيوي لما كان في السابق خاضعًا لتبعيته. والغريب هو أنه باستثناء السيد لوي أرمان (Louis Armand)[2]، لم

جـــدال. هل أنقذ الرعب الجمهورية؟ وهل عمل كل من روبيس بيير وسانت جوســـت، بقمعهمـــا للمعتدلين والمتطرفين على حد سواء، على نسف أساس الـــثورة ذاته، مهيئين، بشكل لا إرادي، مجيئ تيرميدور وبونابارت؟ فالآثار والآثار المضادة تتشابك فيما بينها. ومن جهة أخرى، فالظواهر مثل الاتجاه الجاكوبـــي، يعاد البحث فيها من جديد (Cochin, Furet) وهي تطرح أمامنا تـــساؤلات جديدة... فهناك هشاشة في المعرفة التاريخية الأكثر يقينا. وهذه المعـــرفة مـــثلها مثل كل معرفة علمية معرضة من دون انقطاع لأن تكون موضع سؤال تحت تأثير وثائق جديدة، أو، وهذا ما يحدث غالبًا، تحت تأثير نظرة جديدة إلى الوثائق القديمة.

(1) باللاتينية: ipso facto

(2) لويس أرمون عالم فرنسي ولد سنة 1905 وتوفي سنة 1971. انتخب عضوًا فـــي أكاديمية علوم الأخلاق والسياسة سنة 1960، ثم عضوًا في الأكاديمية الفرنسية سنة 1963.

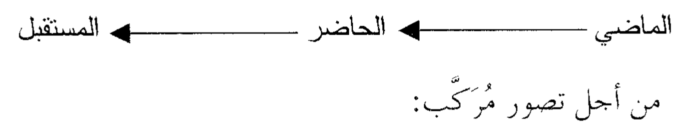
يدرك أحد هذا الأمر، بل تم إقصاؤه من توقعات تلك الحقبة. وهكذا فمعرفة الحاضر ضرورية لكل عمل يريد توقع واستشراف المستقبل.

لكن قد لا يكفي التفكير في الحاضر بشكل صحيح لكي نكون قادرين على استشراف المستقبل. من الأكيد أن حالة العالم الحاضر تتضمن، بشكل مضمر، حالات عالم المستقبل. لكنها تتضمن بذورًا مجهرية ستتبلور، لكنها الآن غير مرئية بالنسبة لأعيننا. ومن جهة أخرى، فرغم أن الإبداعات والابتكارات والاختراعات القادمة تتوقف على شروط موجودة سابقًا، إذن موجودة سلفًا في الحاضر، فإنه لا يمكن تصورها قبل ظهورها (إن نتائج الاختراعات/الابتكارات الحالية هي وحدها التي من المحتمل أن يكون في مقدورنا تخيلها). وهذا الجزء الحاسم من المستقبل لم يأخذ بعد شكله في تُرْبَة الحاضر. والمستقبل، قبل أن يأتي، موجود هنا (كما يبين لنا ذلك مثال تبعيتنا للطاقة) في الوقت نفسه الذي لا يكون فيه هنا. إن المستقبل سيكون خليطًا مجهولاً من الأمور المتوقعة وغير المتوقعة. وإلى هذا ينبغي أن نضيف أن المستقبل ضروري لمعرفة الحاضر. وهو الذي سيقوم بالانتقاء داخل مخاض الأفعال، والتفاعلات، والأفعال الارتجاعية التي تشكل الحاضر. وهو الذي سيكشف لنا العوامل الحقيقية الفاعلة في المستقبل. وعلى ضوء المستقبل الذي أصبح حاضرًا والذي جعل من الحاضر ماضيًا، يتوارى الفاعلون الأساسيون في الحاضر تحت الظل، ويصبحون ممثلين من الدرجة الثانية، في حين يخرج الفاعلون الحقيقيون من الظل، ومن الكواليس، ومن تحت الطاولات، وخلف الستائر، لكي يلعبوا دورهم في لعبة الزمن.

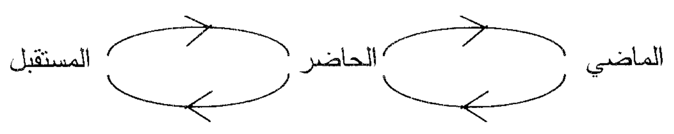
وهكذا فمعرفة الحاضر ضرورية لمعرفة المستقبل، وهذه الأخيرة ذاتها ضرورية لمعرفة الحاضر.

يترتب على ذلك أن المعرفة المتعلقة بالماضي وبالحاضر هي معرفة تتخللها ثغرات، مثلها مثل المعرفة المتعلقة بالمستقبل، وأن هذه المعارف مترابطة فيما بينها: فمعرفة الماضي خاضعة للحاضر، الذي تكون المعرفة المتعلقة به خاضعة للمستقبل.

ولـــذلك ينبغـــي علينا التخلي عن الخطاطة التبسيطية التي تبدو بديهية:



من أجل تصور مُرَكَّب:



إن تصورًا مثل هذا يلغي، من خلال الشكوك التي يضفيها على ما يبدو أنه أمر ثابت، أي الماضي والحاضر، كل محاولة لتوقع واستشراف المستقبل. والواقع أنه يكشف عن تفاهة علم استشراف المستقبل وعلم المستقبليات اللذين يدعيان ارتكازهما على أساس الحاضر. إنه بالتأكيد يجعلنا نتخلى عن كل تصور يقيني للمستقبل، لكن سيكون من الجنون الاعتقاد أن التكهن بالمستقبل يمكنه أن يحل، بنفس اليقين، محل تنبؤات الأنبـــياء أو المـــنجمين. إنه يدعونا إلى القيام بجهد كبير وصعب، جهد يعمـــل على إحداث تواصل متبادل بين ماضينا، وحاضرنا، ومستقبلنا، بكيفـــية تجعلـــنا نؤســـس حلقة تُولِّدُ معرفةً أكثر وضوحًا عن الحاضر وإسقاطات غير يقينية بما فيه الكفاية عن المستقبل.

ولهـــذا الغرض تتوفر لدينا أداة ربط تكمن في معرفة مبادئ الأمر الذي يجعلنا ننتقل من الماضي إلى الحاضر ومن الحاضر إلى المستقبل، أي يسمح بتصور التطور التاريخي.

والتطور لا يخضع للقوانين ولا لحتمية متفوقة. وهو ليس ميكانيكيًا ولا خطيًا. ولا وجود لعامل مهيمن باستمرار يقود التطور. وبالفعل سيكون المستقبل سهل التنبؤ لو كان التطور يتعلق بعامل مهيمن وبعلّية خطية. ينبغي علينا على العكس من ذلك الانطلاق من الإقرار بغباوة كل تنبئ يقوم على تصور تطوري بهذا القدر من التبسيطية. إن الواقع الاجتماعي متعدد الأبعاد؛ وهو يتضمن عوامل ديموغرافية، واقتصادية، وتقنية، وسياسية، وأيديولوجية... وبإمكان بعضها أن يهيمن في لحظة، لكن هناك تدوير للهيمنة. والدياليكتيك لا يمشي على القدمين ولا على الرأس، إنه يدور، لأنه قبل كل شيء حركة التأثير والتأثر، أي حلقة في حركة أزلية.

يعني ذلك في ذات الوقت أن كل ما يتطور يخضع لمبدأ متعدد العلل. والعلّية هي تعددية العلل حيث لا تتركب التفاعلات الارتجاعية فيما بينها ولا تتصارع فحسب، بل يُنتج كل مجرى مستقل عليتَه الخاصة بتأثُّرِه بالتحديدات الخارجية، أي أنه يحمل علّية ذاتية – خارجية – مركبة. وفي الوقت نفسه [رأينا ذلك في هذا الكتاب وفي موضع آخر (راجع كتابنا: **المنهج**، I، ص. 257–271 و**المنهج**، II، ص. 81–83)] تنحرف الأفعال، وتحول اتجاهها، وتقلبها، وتُؤدي إلى ردود فعل وأفعال مضادة تغمرها. من هنا تحصل النتائج المرتدة حيث إن الضربة تعود لتضرب لا العدو، وإنما الفاعل، وتحدث النتائج (المنحرفة)، التي بدأنا ندرك عَجيجها.

وأخيرًا تظهر الابتكارات والإبداعات والاختراعات التقنية، والثقافية، والأيديولوجية، وتُغَيِّر التطور، بل إنها تُثَوِّرُه وتعملُ حينئذ على تطوير مبادئ التطور.

وتؤسس الإبداعاتُ/الاختراعاتُ انحرافات، بإمكانها أن تتضخم وتتقوَّى وتأخذ شكل اتجاهات، يمكنها إما أن تندس داخل الاتجاه

المهيمن وتغير توجهه، وإما أن تحل محلها. وهكذا فتطور مهما كان، سواء كان بيولوجيًا، أو سوسيولوجيًا أو سياسيًا، لا يكون أبدًا مباشرًا أو منتظمًا. والتاريخ لا يتقدم بكثافة مثل نهر. إنه يولد براعم بشكل هامشي، ويتبلور بشكل انحرافي حسب الخطاطة التالية:

الابداعات ← الانحراف ← اتجاه ← معيار جديد أو أرثذوكسية

والانتقال إلى الانحراف هو في الوقت ذاته افتراق يمكن أن يُولِّدَ انفصالاً، ومنه تتبلور أشكال جديدة (الانفصال - تَكَوُّن أشكال جديدة). وبإمكان التقابلات أن تؤدي إلى نزاعات. والاتجاهات الجديدة تتبلور بهدمها للبنيات القديمة، والثقافات، والمؤسسات. والرأسمالية، مثلاً، لم تتولد بشكل مباشر من تطور القوى المنتجة للعالم الإقطاعي. لقد ظهرت، كما بين ذلك بيشلير[1]، بشكل طفوليٍّ في المجتمع الإقطاعي حيث تبلورت اقتصاديًا بشكل ذاتي، مُفسدةً بذلك هذا المجتمع ومُفَكِّكَةً لبنياته.

وهكذا، فحركة الصيرورة شيء مركب بشكل هائل. والتاريخ يُبدِعُ، وينحرف، ويتمايل. وهو يغير السكة، ويضل السبيل: والاتجاه المضاد للتيار الذي أثاره تيار يختلط بالتيار، وبتغيير اتجاه هذا الأخير يصبح هو التيار. والتطور انسياق، وانحراف، وخلق، وهو قطائع، واضطراب، وأزمات. إن نمو الصناعة قد تحقق، لا على أرض الحضارة السابقة، وإنما بقلب أوضاع المجتمع التقليدي قلبًا، وبنقل جموع سكان

(1) باحث فرنسي في مجال السوسيولوجيا، ولد سنة 1937، ودرس في جامعة السوربون (جامعة باريز الرابعة)، وأصبح منذ سنة 1999 عضوًا في الأكاديمية. والإحالة هنا إلى كتابه Les origines du Capitalisme, Gallimard, 1971.

الأريـــاف إلى الـــضواحي، ومحطمًا بذلك الروابط والتضامنات لصالح علاقة مالية، ومهدمًا بذلك ثقافات ألفية...

وفـــوق ذلـــك، هناك حالات حرجة، ومأزومة، ومتقلبة يكون الـــتاريخ فيها في حالة تردد، إما تحت اندفاع القوى المضادة التي يُفْنِي بعـــضها الـــبعض مـــرحليًا، وإما في لحظات مفترق الطرق حيث تتم عملـــيات انـــتقاء، وتنفتح متواليات، وإما في إطار انفصال يكون على رأس قفزات صيرورة مغامرة. وعندئذ يكفي أن يحدث في البداية انثناء جـــد خفيف، وانتقال طفيف، كي يتغير انسياب المجرى بكامله. وفوق ذلـــك، يحمل التاريخ في جوانبه، اليوم، حمولة متفجرة قاتلة يمكنها أن تنفجر أثناء الطيران.

وهكذا ففي الحركة الإعصارية للإبداعات/الانحرافات/الاتجاهات/الاتجاهـــات المـــضادة/الانفـــصالات الجديدة/تَكَوُّن الأشكال الجديدة/النـــزاعات/الأزمات/الانقلابات وهي المشكلة لحركة الصيرورة، تحدث مـــن دون انقطاع انحرافات وتقلبات مسارات، وانقلاب الغايات إلى وســـائل، والوســـائل إلى غايـــات، وانقلاب المنتوجات الأساسية إلى منتوجات ثانوية **والعكس**[1]. وهكذا فالتلوث، الذي هو منتوج ثانوي للتـــصنيع، يمكـــنه أن يصبح هو منتوجه الأساسي. والحسنات الحيوية لتقلـــيص وفيات الأطفال يمكنها أن تجلب مخاطر قاتلة تترتب على المدِّ الديموغـــرافي... وكل هذا يمكنه، من جديد، أن ينقلب، حسب ما إذا حـــسَّنا أو أصـــلحنا مسار التقنية، أو ضاعفنا إنتاج المواد وعملنا على تحسين توزيعها. وأيضًا، لا وجود لعامل يمكن اعتباره ثابتًا بشكل دائم، ومـــستقرًا، وبالتالي لا وجود لشيء يمكن التكهن به بشكل يقيني، بل كل شيء ينبغي توقعه وفق شروط.

---

(1) باللاتينية في الأصل: vice versa

ولأجل كل هذه الأسباب المشار إليها أعلاه، لا يسير التطور وفق مسار يبدو محتملاً خلال حاضر معطى. وهذا الأخير لا علم له بالإبداع الذي لم يحدث بعد، ولا يرى البذور المجهرية التي ستعرف تطورًا متسارعًا، ولن يعرف التكهن بنتائج التفاعلات الارتجاعية اللامتناهية التي تؤسس العلِّية الحقيقية المعقدة، ولا يُدرِك بعدُ انحرافات الاتجاه وتبدُّل الغايات التي ستَسِمُ المسارات المستقبلية بميسمها. وبالتالي فالمستقبل ينتمي بالأحرى إلى الأمر اللامحتمل، لا إلى المحتمل، خصوصًا إذا استمر التطور بهذا الشكل من التسارع والتعدد الذي يعرفه عصرنا. والواقع، أن الماضي لا يتوقف عن الإشارة إلينا بأن التطور لا يكون تطورًا إلا عندما لا يتبع المجرى المحتمل. ولو أن علماء مستقبليات العصر الثاني[1] قدمُوا من خارج المجرة لمراقبة كوكب الأرض، فلن يكون بمقدورهم التكهن بأن العظَّائيات[2] الهائلة والمصفحة غاية التصفيح والتي كانت تبسط هيمنتها آنذاك فوق كوكبنا قد اختفت بعد بضع دقائق كوسمولوجية من انتصارها، لتترك المجال لثدييات صغيرة من دون سلاح. لن يكون بمقدورهم افتراض أنه في عالم نباتي ذي لباس أخضر بسيط، ستتفتح بشكل مفاجئ أزهار متعددة الألوان. وأيضًا، ستكون مغامرة الإنسان العاقل[3] أمرًا غير متوقع وغير قابل للتصور بالنسبة لعلماء المستقبليات لو أنهم عادوا لزيارة الكوكب منذ مائة ألف سنة. ومن كان باستطاعته، منذ أقل من خمسة عشر ألف سنة، أن يتوقع

(1) العصر الثاني لكوكب الأرض امتد من 245 إلى 65 ميلوين سنة.
(2) مصطلح بيولوجي يطلق على الحيوانات الزاحفة التي تتيمز بجلدها الخشي الذي يشبه الدرع. وقد عاشت هذه الحيوانات في أحقاب تاريخية سحيقة قبل أن ينقرض أغلبها.
(3) باللاتينية في الأصل: homo sapiens

ظهور الدولة، والمدينة والإمبراطورية من خلال تأمل شتات إنسانيّ مُكوَّن من مجموعات صغيرة من القناصين - القاطفين وشبه رحَّل، من دون دولة ومن دون مدينة، ومن دون زراعة؟

يعني هذا أن مبدأ اللايقين يؤثر في المستقبل. بل أكثر من ذلك: ففجوة المستقبل الهائلة تطبع الحاضر بطابع اللايقين (وهو حاضر لن نعرف بالتأكيد تحديد معناه أو معانيه)، وتصيب الماضي، وتؤثر في مجموع المغامرة الإنسانية (وتصبح فشلا مطلقًا إذا وصلت إلى الفناء الذري).

والاعتراف بهذا اللايقين لا ينبغي عليه أن يدفعنا فقط إلى التخلي عن التوقعات المبسطة والواهنة والتي كانت إسهام مراكز علم استشراف المستقبل من خلال سنوات الستينيات [من القرن الماضي]. إن على هذا الاعتراف أن يقدم لنا عناصر لا يقينية كجواب عن يقيننا الحاضر. يجب عليه أن يجعلنا نواجه الصعوبة المركزية والمتمثلة في التفكير في حاضرنا، أي التفكير في تيارات عالمنا الحاضر.

والتقدم الكبير الذي قدمته سبعينيات القرن الماضي هو الاعتراف بمبدأ اللايقين. وهو بالتأكيد المعنى الأول الذي تحمله معها كلمة «أزمة»، أي ظهور اللايقين هناك حيث يبدو أن كل شيء يقيني، ومنضبط ومُحكَمٌ، وبالتالي قابل للتوقع. وقد اعتقد رجال الاقتصاد «البرجوازيين» خلال سنوات الستينيات أن المجتمع «الصناعي»، ثم «المابعد صناعي» يقوم على أرض صلبة، وأننا كنا تقريبًا نعيش في نهاية التاريخ، في اللحظة التي تم فيها التحقق النهائي «للمجتمع الجيد»، الذي يقرُّ السلم، والأمن، والرفاهية، والعيش السعيد، لكل المواطنين، واعتقدوا أن المستقبل لم يكن سوى استمرارية للحاضر وقد انطبع بطابع النمو المنتظم (ألم تذهب عالمة اجتماع أوقات الفراغ الظريفة إلى تخيل «نسبة

نمـــو ثقافـــية»!). وفي مقابل ذلك، أكدت الماركسية الرسمية أن الثورة الأساســية قد تحققت هناك حيث يسود النظام الستاليني، الذي يطابق «الاشـــتراكية الحقيقـــية». والحال أننا بدأنا نفهم اليوم أنه ليس الغرب وحـــده الذي دخل في أزمة اقتصادية وثقافية، ولكن قاعدة هذا المجتمع وذاك[1] انحرفت وتشققت وأن الكوكب يعيش أهوالاً بركانية مثلما أنه يـــسير في «طـــريق النمو». ولا وجود لأي نجم يرشد المستقبل، الذي أصـــبح مفتوحًا كما لم يحدث أبدًا في القرون السابقة، ما دام يحمل من الآن وفي الـــوقت نفـــسه إمكانيةَ فناء الإنسانية، وإمكانية تقدمٍ حاسمٍ للإنـــسانية، وبين هاتين الإمكانيتين المتطرفتين، تصبح كل الاقترانات، والخلائط، وكل تجاورات التقدم والتقهقر ممكنةً.

يجب علينا محاولة النظر في حلقة الماضي/الحاضر/المستقبل بامتلاكنا لمعـــنى البعد المُركّب الذاتي للتطور التاريخي. وهكذا تفيد عملية التوقع استكـــشاف معـــنى دوّامـــة الحاضر. لم يعد الأمر يتعلق بإرادة مراقبة المـــستقبل. يـــتعلق الأمر بالسهر، ورصد في إطار/وبمعية مبدأ اللايقين. كـــيف نتعامل مع هذا اللايقين؟ بمساءلة هذا القرن الذي هو في حالة احتضار.

---

(1) يقصد الكاتب هنا المجتمع الغربـــي والمجتمع الاشتراكي.

قرن الأزمات
القرن في أزمة

لنلق نظرة على القَرْن الذي نعيش فيه[1]، لكن على هذه النظرة أن تكون مزدوجة. وعلى افتراض أن عين الذهن الأولى لا ترى إلا الجانب المتصل، وعين الذهن الأخرى لا ترى إلا الجانب المنفصل، فإن الصعوبة التي ستكون لدينا لربط الجانبين هي نفسها التي ستكون لدينا لفهم أن ظاهرة تنتمي إلى عالم الميكروفيزياء بإمكانها أن تكون في الآن الواحد من طبيعة تموُّجية وجزيئية.

وهكذا، فنحن نرى، بالعين الأولى، مجموعة اتصالية تدريجية، تبدو وكأنها خطية، وتبلورات علمية وتقنية، واقتصادية، وصناعية، وذات طابع استهلاكي، وحضاري، وهي النظرة المهيمنة في التصورات السوسيولوجية والتقنو - بيروقراطية.

لكن لنفتح العين الأخرى: وعندها فإننا سنرى قرنًا احترق بنار أكبر حربين وقعتا في تاريخ الإنسانية، وهما معًا حربان عالميتَان: والواقع أن هاتين الحربين لم تكونا فقط قاتلتين ومبيدتين للشعوب؛ ولم تكونا فقط تدفقَ الهمجية الخارجة من قلب الحضارة ذاتها، شنَّتهما أمم تعد من أكثر الأمم تطورًا في العالم، وبخاصة بلد الشعر والموسيقى والفلسفة. إن هاتين الحربين حملتا معهما أيضًا أزمات اجتماعية هائلة،

---

(1) يتعلق الأمر، بطبيعة الحال، بالقرن العشرين.

وقطائـــع في الصيرورة، وإجهاضات وإفساد لمسارات التحرر. فلم تُوَلِّد الحـــرب العالمـــية الأولى بين 1914-1918 شيوعية الجهاز فقط، التي حـــوّلت البلـــشفية إلى حـــرب مدنية وأجنبية، ثم إنها لم تولد الفاشية الإيطالـــية، ولم تُنـــتج فقـــط، بعد نهاية خمسة عشر سنة من الأزمات والارتجاجـــات، الـــنازية، التي ولدت بدورها الحرب العالمية الثانية. إن الحـــرب العالمـــية الأولى بـــين 1914-1918 قد حطمت شيئًا يُشَكِّل إمْكانًـــا. إنهـــا حطّمـــت تطـــورًا آخـــر يرمـــز إليه باسمي جوريس وليبكنيخت[1]، ونفايات مشمئزة لهذا التاريخ المكسَّر الذي أفسد القرن العشرين وغزاه. لقد تحول مسار العالم في سنة 1914، ثم في سنة 1917 . ولـــيس بإمكانـــنا أن نعرف إلى أين كان سيذهب هذا العالم، لكن بمقـــدورنا أن نـــؤكد أنه كان سيأخذ سبيلا آخر. لا شك أن التاريخ الإنـــساني قد انقلب، باعتبار أنه قد أجْهِض في سنوات 1914-1918، ونحن لا نعرف ذلك بعد، لأن نتائج هذه الكارثة لم تحدث كلها بعد.

وهكـــذا، فهـــناك ســـبيلان لفهم القرن العشرين: سبيل التقدم والـــتطور، وهـــو يبدو أنه ذو طابع عقلي؛ وسبيل تسوده الارتجاجات والرعب.

فلم تكن الحرب العالمية الثانية ردًا على الحرب العالمية الأولى. إنها كانـــت استمرارية لها. لقد أصبحت حربًا مغايرة، لا بفعل تنامي قوى الموت فقط، ولكن أيضًا، وبالخصوص، بفعل تدخل النظامين الكلّيّانيين المتنافسين[2]، العدوين، اللذين كانا في لحظة حليفين – من أجل إطلاق شـــرارة النـــزاع –، ليصبحا بعد ذلك عدوين لدودين. لقد اختلطت حـــربهما اختلاطًا كبيرًا بحرب الأمم الديموقراطية التي كانت مع ذلك

---

(1) Jaurès et Liebknecht

(2) أي النظام السوفياتي والنظام النازي.

حـــربًا أمـــبريالية، وكان عليها أن تواجه محاولات التحرر التي تقوم بها الـــشعوب التي كانت تستعمرُهَا؛ نضالات ملتبسة حيث إن (معسكر الحـــرية) كان يعمل في الآن نفسه لصالح النظام الكلياني الستاليني ومن أجـــل إنقاذ القمع الاستعماري؛ وحيث إن الستالينية كانت تعمل في الآن نفـــسه من أجل تحرير الشعوب المستعبدة من طرف ألمانيا النازية؛ وحـــيث إن هـــذه الأخيرة حتى وإن قاتلت (البُلشَفية)، فإنها ما كانت تطمـــح إلى تحريـــر شعوب الاتحاد السوفياتي، وإنما من أجل استعبادها بشكل آخر، وبقوة أكبر. وفي ذلك الوقت، كانت اليابان تستعبد، في الطـــرف الآخـــر من العالم، الشعوب التي تحررها. ثم كان هناك تحرير برلين، وهي سنة الصفر بالنسبة لألمانيا. وكانت هناك هيروشيما، وهي ساعة الصفر بالنسبة للإنسانية.

وبعد ذلك جاءت لحظة تحرير فرنسا، والأنقاض، والأمل، ومؤتمر يالطا، واتفاق القوى العظمى، والحرب الباردة بين هذه القوى. أما في العـــالم فـــإن حـــركة التحرير أخذت انطلاقتها، إما بانتفاضات، أو بمحادثـــات أو بحرب، وسيمر هذا المجرى من خلال حربين خاضتهما فرنسا، الواحدة في فيتنام والأخرى في الجزائر. ولن يتوقف تاريخ العالم عـــن أن يكـــون مـــصدومًا، وعنـــيفًا، ومطـــبوعًا بالانتفاضـــات، والاضطهادات. ومع ذلك، ستبدأ في سنوات 1950-1955، في أوربا الغـــربية، وباقتفاء خطى الولايات المتحدة، انطلاقة اقتصادية جديدة، ومجرى عمراني وتصنيعي. وسيشاهد أنبياء السوسيوتقنوقراطية العميان كـــيف تم الـــتغلب على الأزمات الاقتصادية، والأزمات الاجتماعية، وكـــيف تمكـــن الغرب من تلبية حاجات الإنسانية، وكيف تم توافق المجتمع الصناعي الكوني، وكيف تحقق التطور المُعمّم لإنسانية أصبحت هادئة ومتعاونة فيما بينها.

كيف استطاع البعض الاعتقاد أننا فوق قشرة الغرب هذه الرقيقة والضعيفة، والمحلية، والمؤقتة، نمارس البناء فوق سطح صخري صلب؟

ألم يكن القرن العشرون، على العكس من ذلك، قرنًا في أزمة، بل قرنَ الأزمة؟ ألم يفتح أزمته الذاتية، سنة 1914، واليوم، ألسنا في مواجهة أزمات مترابطة، مركبة، متصادمة، وفي بعض الأحيان يبطل أحدها مفعول الآخر؟

وهنا، ينبغي علينا محاولة توضيح لفظة أزمة، وهي لفظة أصبحت فارغة لفرط استعمالها. لكن ينبغي علينا الإشارة، أولا، إلى أن الاستعمال المتعدد للفظة «أزمة» (أزمة التقدم، أزمة الحضارة، أزمة المراهقة، أزمة الأزواج، إلخ.) يترتب على تكاثر علامات أزماتية... لنحاول الآن تحديد هذه اللفظة. عندما نلقي نظرة أولى، فإننا نلاحظ أن الأزمة لا تظهر فقط عند حدوث انكسار داخل اتصال، أو عند حصول زعزعة داخل نسق كان يبدو ثابتًا، لكنها تظهر أيضًا عندما تتكاثر الاحتمالات وبالتالي التقلبات. إنها تظهر بفعل انقلاب التكاملات إلى عداوات، وعند تحول الانحرافات السريع إلى نزعات، وعند تسارع مسارات مُهدِّمة/مُفكِّكة **(مفعول ارتجاعي إيجابي)**[1]، وعند حدوث قطيعة في صلب التنظيمات، وبالتالي عند اجتياح مسارات منفلتة من كل رقابة وميالة إلى التضخم الذاتي أو إلى التصادم القوي مع مسارات عدائية أخرى تنفلت هي نفسها من كل رقابة.

والحال أننا لسنا فقط في مجتمع انبثقت فيه أزمة ثقافية (ذروتها مايو 1968)، حيث أن أزمة اقتصادية جديدة بدأت تتسع لأسباب خارجية (ارتفاع أسعار البترول) أيقظت هي نفسها أسبابًا داخلية كامنة داخل مجتمعاتنا. إننا نوجد في قلب صيرورة حيث إن الأزمة تبدو لنا، لا

---

(1) باللغة الإنجليزية في الأصل.

كحدث عارض داخل مجتمعاتنا، وإنما كنمط وجودي؛ وكما أشرت إلى ذلك في دراستي لمفهوم الأزمة (Communications, N°25, 1976) – وأذكـــر هنا ما قاله أنطونيو نيغري: «إن الأزمة ليست نقيض التقدم، وإنما هي صورته ذاته.»

والواقع أنه ينبغي ربط الفكرتين، فكرة أن الأزمة قد أصبحت هي نمـــط وجـــود مجتمعاتـــنا، وفكرة كون التقدم يحمل في نفسه خاصية أزماتـــية: ففـــي ثنايا تطوره المغيِّر والمتسارع ينطوي تقدم الأمم على عمليات فك البنيات/وفساد اقتصادي، واجتماعي، وثقافي: فالتقدم لا يحـــدث فوق أساس ثقافي وحضاري ومجتمعي: إن التقدم غير منفصل عـــن عملـــية تحطـــيم/وتغـــيير لهـــذا الأساس، وهذا المجرى المنشئ للفساد/وإعادة بعث النظام هو خاصية هذا البعد الأزماتي.

وهكـــذا يـــبدو أن أزمة الحضارة، فيما يخص المجتمعات الغربية، وأزمـــة الثقافة، وأزمة القيم، وأزمة العائلة، وأزمة الدولة، وأزمة الحياة الحـــضرية، وأزمـــة الحـــياة القروية، إلخ. هي جوانب متعددة لكيان مجتمعاتنا، الذي يبدو كيانًا مأزوما، وهي مجتمعات تهددها هذه الأزمة، لكنها مجتمعات تتغذى منها.

يـــبدو أن الأمـــر على العكس من ذلك في المجتمعات الستالينية. فالمظهـــر الثابت للنظام، والتكلّس السياسي وجُمُوده الذي يطال قمم الدولـــة، والصرامة الانضباطية لآلة الدولة، كل هذا يبدو وكأنه يقصي خطـــر وجود الأزمة. والواقع أن كل هذا يشكل بالفعل آلة هائلة كي يـــبعد، بكل ثمن وبشكل دائم، كل شكل من أشكال الانحراف، وكل **مفعول ارتجاعي إيجابي**[1]، وكل تعبير تعددي، وكل شكل من أشكال النـــزاع داخل السلطة، أي تجنب كل بداية لمسار أزماتي. لكن مجموع

---

(1) باللغة الإنجليزية في الأصل.

المجتمع السوفياتي آنذاك سيكون في أزمة ويصبح مهددًا بالانفجار، من دون ذلك النسق الهائل القمعي/التأديبي/المعياري الشمولي.

من هنا نرى هذه الوضعية المتناقضة: فالإمبراطورية الروسية ترعى عوامل الأزمة مع العمل على قمعها. وهكذا فالزراعة في أزمة، دون أن تكون في أزمة. ومجموع الآلة الصناعية المدنية تعيش في الآن الواحد نظامًا متكلسًا ناجما عن قمم الهرم السياسي كما تعيش فوضى السلع الرخيصة، والشطارات والخداعات الصادرة عن القاعدة؛ إلا أن اقتران هذا النظام وهذه الفوضى عوض أن يخلّص هذا المجتمع في الآن الواحد من التكلس والفساد، هو بالضبط ما يجعله يستمر في الحياة: فنظام الإكراه يعطيه العمود الفقري، وفوضى البحث عن ضروريات الحياة تعطيه حيوية. ومن جهة أخرى، فهذه الإمبراطورية منفجرة بشكل افتراضي، ما دام هناك في كل مناطق الاتحاد السوفياتي طموحُ القوميات للانفلات من هيمنة أديولوجية روسيا الكبرى، لكن هذا الانفجار يظل خياليًا، حتى وإن كان مكتوبًا على أرض الواقع، لأن كل الحركات التي باستطاعتها إشعالها تُخْنق في المهد. فالنظام السياسي ثابت كالصخر، لكن هذه الحالة هي التي تحتم عليه أن يتقدم بطبيعة أزماتية، من خلال تغيير مفاجئ لعشيرة، أو لقائد، أو بسبب ظهور مكائد، ومؤامرات داخل المكتب السياسي.

ونحن لو تأملنا الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية، للاحظنا أن كل مجتمع من هذين المجتمعين عرضة لمعارضات وتناقضات، كلها من طبيعة متأزمة. ففي الولايات المتحدة الأمريكية، انتشرت المعارضات والتناقضات بشكل فوضوي تام بحيث إنها في بعض الأحيان هزت كيان الدولة وزعزعته، بل إنها شلّته مؤقتًا. إلا أن هذه الفوضى هي المجال الذي تظهر فيه حيوية المجتمع الأمريكي. وفي مقابل

ذلــك، فإنــنا نــرى أن الحزب - الدولة في الاتحاد السوفياتي يكبت الفوضى في أعماق المجتمع، ويخنق في المهد ظهور كل شكل من أشكال التعارضــات والعداوات. وهكذا يبدو الاتحاد السوفياتي أقل عُرضة من الــولايات المتحدة الأمريكية للأزمة. وبالفعل فعوامل الأزمات تُكبتُ قبل ظهورها. إلا أن احتمال انفجار الأزمة هنا هو احتمال أكبر بما لا يتناهــى، وفي الوقت نفسه يظل هذا الاحتمال مكبوتًا بشكل لا محدود ودائــم. أما المجتمع الأمريكي فإنه لا يستطيع فقط أن يتحمّل الأزمات والنــــزاعات، والفوضـــى الداخلية، وهو لا يعمل فقط على كسب تسامح هائل للتعايش مع عوامل لو وجدت في مجتمع كالمجتمع الفرنسي لشتّته، بل باستطاعته أيضًا أن يغترف من هذه الأزمات، على الأقل إلى حدود عتبات معينة، قوى إعادة التنظيم والإصلاح الذاتي.

إن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي هما في الوقت نفسه قوتان عظيمــتان وامـــبرياليتان. فنحن عندما نتأمل الإمبراطوريتين منذ سنة 1945، فإنــنا نلاحظ أن حالة الشيخوخة التي أصبحت تعيشها القوة الأولى جعلــتها تتصلّب؛ أما الثانية فإنها تعيش تقدمًا بيّنًا وهي موجودة حاليًا في مواقع عديدة من بلدان آسيا وإفريقيا، من دون أن تفقد شبرًا واحــدًا من أوروبا التي مارست فيها القمع ضد انتفاضات في هنغاريا وبـــولاندا وبلاد التشيك. أما على الصعيد العسكري، فإن كل قوة من هـــاتين القـــوتين تملك قوى هائلة وتعاني من غباوة عجيبة. ونحن قد شاهدنا الغباوة العجيبة للقوة الأمريكية خلال السنوات الطويلة لحرب الفيتـــنام. وقد شاهدنا ذلك في كوبا. بل شاهدنا ذلك في كل مكان. لكننا لم نشاهد بعد غباوة قوى روسيا، وربما لن نشاهدها أبدًا (فرضية سأبحثها في الصفحات القادمة، «فرضية السيطرة وأوروبا»)، لكن بذور التفـــتت موجودة في قمة هذه القوة العسكرية الهائلة وفي قاعدتها، كما

أنه بإمكان تواصل هذه القوة مع مَحْمياتِها الهامشية أن تتكسّر بسهولة. لا شك أن الخرافة الاشتراكية الستالينية تظل خميرة التحرر القومي في العالم الخاضع للهيمنة الأمريكية. لكن أينما حلت الهيمنة الروسية محل الهيمنة الامبريالية السابقة، إلا وتصلبت هذه الخرافة، وتمزّقت، وتفكّكت تحت وقع تجربة «الاشتراكية الحقيقية».

وهكذا فنحن أمام قوتين/ضعيفتين هائلتين. فالاتحاد السوفياتي هو مركز إشعاع الاشتراكية الوطنية، وهي شعار الطبقة الحاكمة الجديدة في دول العالم الثالث، وشعار أمل بالنسبة للشعوب البعيدة والجاهلة بالتجربة الاشتراكية «الحقيقية»، شعار الإيمان والنجاة بالنسبة للمناضلين والمثقفين في كل البلدان، ومن هنا فإن شبكة تأثير الاتحاد السوفياتي تمتد في العالم، إلى قلب النظام الأمريكي. لكن من جهة أخرى، ففي قلب الحياة «السوفياتية»، في موسكو كما في كل أقاليم هذه الإمبراطورية الشاسعة، يشع نموذج الحياة الفردانية الغربية وخرافة الجنة الأمريكية. فليست الاشتراكية هي الواقع المعيش للبلدان «الاشتراكية»، وإنما القناع الأيديولوجي الذي يغطي الركون إلى الحياة الخاصة والطمع في نمط حياة قائم على الاستهلاك، وأوقات الفراغ، والحريات... فأيديولوجيا كل طرف تهيمن على الطرف الآخر. (مع تسجيل هذا الاختلاف وهو أن الإيمان بنمط الحياة الأمريكية يظل قويًا في الولايات المتحدة الأمريكية، في حين أن الإيمان بنمط الحياة الاشتراكية منعدم في الاتحاد السوفياتي). **إننا نعيش حالة مفارقة متزامنة تتمثل في كوننا نعيش عهدًا ستالينيًا عالميًا، وعهدًا أمريكيا عالميًا.**

وهكذا يتمتع كل واحد من هذين الشريكين الكبيرين بامتيازات هائلة وكل واحد منهما يعاني من نقائص جسيمة. فكل قوة عظمى هي، في الآن الواحد، كما يقول سالانتان، عجز عظيم. ولن نعرف من

سيكون المنتصر. لكن مما لا شك فيه أن القوة الحاسمة لأحدهما ستترتب على الضعف الحاسم للآخر. أما فيما يتعلق بأوربا، مثلا، فإن عجزنا الحاد في تحقيق كل جهد من أجل الاتحاد ومن أجل إنشاء درع واق هو الذي سيكون أصل قوة هذا الوحش الهائل الذي لن يحتاج من أجل ابتلاعنا إلى تحريك قدميه الهَشّتيْن، وإنما سيحتاج فقط إلى مد رأسه نحو الأسفل. وعادة ما يحدث في التاريخ أن يكون الفشل الكامل لنظام يتمتع بقوة أمنية وعسكرية هو السبب الذي يقذفه إلى الأمام ويجعله ينتصر على نظام قابل للاستمرار في الحياة...

إن كلاً من الشرق والغرب تنخرهما عوامل مأزومة. والعالم الثالث الذي ظهر إلى الوجود بفعل حركة الاستقلال، يزداد تخلفه عمقًا. فنقص عدد وفيات الأطفال، وتفكك اقتصاديات المجتمعات التقليدية، وتدهور التوازنات البيئية والثقافية والسوسيولوجية الذي أنتجته التقنية الجاهلة، وزحف دور الصفيح على المدن، كل ذلك ولد قحطًا جديدًا ومجاعات جديدة، إذ يقدر عدد الوفيات بسبب سوء التغذية سنويًا بثلاثين مليون وفاة، يشكل منهم الأطفال الذين يقل عمرهم عن خمسة عشر سنة نسبة تتراوح بين 15 و18 في المائة. وهكذا فإذا استمرت كل هذه السيرورات بهذه الوتيرة، بما فيها سيرورات التزايد الديموغرافي، فإننا سنصل قريبًا إلى مستوى مليار وفاة في السنة. فالعالم الثالث بين الحياة والموت. وثمانون في المائة من الإنسانية تعيش فيه حياة تصارع من أجل البقاء، حياة تتحول أكثر فأكثر إلى مستوى تحت - حياتي، وذلك بالنظر إلى الحاجيات والتطلعات التي تقدمها صورة الحضارة الحديثة.

ولا تكمن المشكلة في الكفاف والتحولات المناخية التي تتعرض لها المجتمعات التي ما زالت عتيقة. والتخلف ليس فقط ناتج عن التأخر. إنه

أيضًا ناتج عن عملية إنشاء عنيفة لنموذج غربي للتقدم خارج الشروط التاريخية، والثقافية، والتقنية التي كانت تنتمي إلى التقدم الغربي، وبالتالي فهو نموذج مجرد ومفروض من الخارج، نموذج تقني بيروقراطي لا يرى إلا الآلة الصناعية ولا يرى أبدًا الإنسان، الذي تكون كفاءاته الأولية ضرورية لعمل الآلات والذي تكون ثقافته الأولية غير قادرة على التكيُّف مع عالم تقني موضوع تحت ضغط القياس الزمني. وفي الوقت نفسه، يعتبر تنامي التخلف لمدن الصفيح، ولتنامي الهجرة وعملية الانفصال عن الثقافة لملايين الأفارقة والأسيويين والجنوب أمريكيين هو المنتوج المباشر أو غير المباشر لتطور مناطق صناعية متقدمة. لكن هذا التقدم ذاته الذي يتحقق في داخل هذه المناطق الصناعية المتقدمة، لا يُنتِج فقط البحبوحة والعيش السعيد؛ إنه يُنتِج بشكل متزايد الضيقَ والضجر، لا فقط على شكل ضجيج وتلوث تقنو - كرونوميتري - بيروقراطي يجثم على حياة كل فرد، لكن أيضًا على شكل فقر سيكولوجي، وأخلاقي وعقلي، لحياة الملايين من سكان المدن في الغرب والمستسلمين لأنانيتهم الفردانية، ولتشنجهم بخصوص ما يحدد كميا وما يمكن تحديده كميا، أي للمال، والمهووسين بشكل متزايد بخيراتهم المادية التي يملكوها، والذين يعيشون في فردانية متزايدة في إطار تشرذم حضاري، وتعساء بشكل متزايد ومنطوين على ممتلكاتهم، هذا مع حفاظهم على تطلع متزايد للتحرر الشخصي وللسعادة.

وهكذا، فإننا نجد في كل مكان من هذا العالم فائق التنمية وفي العالم السائر في طريق النمو، تنمية لأشكال من التخلف غير مستقلة عن التنمية ذاته.

وهكذا فلا وجود لتنمية متكاملة فحسب، تكون بفعل ذلك تنمية فوارق. ولا وجود فقط لتنمية لا تكون إلا تنمية تثير من تلقاء ذاتها

أزمة داخل المجتمع، التقاليد، والثقافة. وليس هناك فقط تنمية تثير أزمتها الذاتية. هناك فقط تنمية تحمل في ذاتها تخلفًا، أي أن تقدمها يحمل ويجلب معه تقهقرًا. وبناء على ذلك، تبدو لنا التنمية بمثابة واقع متأزم وحرج يحمل في الوقت نفسه ما يحمل من الهدم والإبداع والتقهقر والتقدم، وندرك أن فكرة التنمية، تحت شكلها المبسط والمنتشي، الاقتصادوي والتكنولوجي، قد كانت أسطورة مجنونة أنتجها الفكر التقنو - بيروقراطي الحديث: وهكذا نرى، مرة أخرى، أن الهذيان المجرد يقدم نفسه على شكل تصور عقلي!



تقهقر داخل التقدم وتقدم التقهقر

كانت فكرة التقدم تبدو بديهية، وفي الوقت نفسه بمثابة وجهة مأمونة وتقدم فعلي. وكان يبدو أن النمو الاقتصادي محدِّدٌ للتنمية الاقتصادية، التي كانت تحدِّدُ بدورها التنمية الاجتماعية والفردية. فالنمو الكمي كان يحمل معه بشكل تلقائي الازدهار الكيفي. والحال أن فكرة التقدم هذه قد كانت فكرة ميتافيزيقية بالمعنى الحرفي في اللحظة التي كانت تجهل القانون، أو بالأحرى، مضاد - قانون الفيزياء الأساسية: إننا نعيش في كون حيث أن مبدأ الارتجاج والتشتت، والفوضى يلعب دورًا مهمًا، وحيث إن أي عمل من الأعمال يحمل معه ضياعًا للطاقة وتبديدًا لها، وحيث إن أي نظام يفترض العمل - من نظام النجوم إلى نظام الكائنات الحية - إلا وينتج من هنا بالذات فوضاه الذاتية، التي ضدها يناضل باستمرار من خلال إعادة تنظيم ذاته، لكنها في النهاية تنتصر وتنتج الموت: وهكذا فالنجوم مثل الكائنات الحية صائرة إلى الموت. وكل تقدم فهو تقدم جزئي، ومحلي، ومؤقت، وفوق ذلك فهو تقدم ينتج الانحطاط، والفوضى، أي التراجع. ويمكن النظر إلى تطور البيولوجيا على أنه تطور قد تم انطلاقًا من كائن حي عتيق وحيد الخلية. لكن ثمن هذا التقدم هو انقراض أصناف عددها أكثر بآلاف المرات من الأصناف المصارعة من أجل البقاء اليوم. كل

جهاز عضوي إلا ويستمر في الحياة، لا بفضل الحياة فحسب، بل وكذلك بفضل موت (أي عملية تجدد) خلاياه. وكل مجتمع إلا ويعيش، لا بفضل حياة أفراده، بل وكذلك بفضل موتهم. وهكذا لا وجود لتقدم تَحَقَّق بشكل نهائي، ولا لتقدم ليس إلا تقدمًا، ولا وجود لتقدم من دون ظل. إن كل تقدم مهدد بالانحطاط ويحمل في ذاته العملية المزدوجة الدراماتيكية للتقدم/التقهقر.

إن التقدم هو إذن وجه متقلِّب من وجوه الصيرورة. ومن المثير أن الإنسانية العلمانية وفلسفة الأنوار وأيديولوجية العقل قد بنت على أنقاض العناية الإلهية فكرةً للتقدم وعملت على أقْنَمَتها وتشييئها في صورة قانون وضرورة للتاريخ الإنساني؛ وظلت هذه الفكرة مفصولة عن كل تجسد ومجردة عن كل واقع فيزيائي وبيولوجي، بحيث إنها غيبت مبدأ الفساد والتحلل العامل في مجال **الفيزياء، والكون، والحياة**[1] وأكثر غباوة من ذلك أسطورة التقنية – البيروقراطية للتقدم التي هيمنت خلال عقدين من الزمن. لقد تصورت النمو الصناعي كعامل للتنمية الاقتصادية، والتنمية الاقتصادية بدورها كعامل للتقدم الإنساني. وهكذا، فالنمو مقدر عليه أن يتقدم بلا حد، وأصبح هو الدليل، والمقياس، والوعد بحصول تقدم شمولي ولا متناه...

وهكذا تم نسيان ظلِّ التنمية الصناعية. تم نسيان أن منتجات تفريغ التقدم يمكنها أن تتنامى وتصبح منتجات أساسية، وتصبح عملية القضاء عليها صعبة أكثر فأكثر، في حين أن المنتجات الأساسية النافعة بإمكانها أن تتقلص لتصبح منتجات ثانوية. ويتم هذا لا في فلك التأثيرات الخارجية للتنمية الصناعية فحسب (تلوث، أضرار، تدهور البيئي)، بل أيضًا في داخل الحياة اليومية (الامتيازات المحرِّرة للحياة

(1) كلمات وردت باللغة الإغريقية.

الحضرية وتنامي الخيرات المتوفرة ما دام قد تم تعويضها أكثر فأكثر بعمليات بتر للحياة الخاصة، وفقدان للتضامن وتشرذم الأفراد، وخضوع الأجساد والأذهان لوتيرة كرونوميترية ولمعايير النظام الآلي). وفي نهاية المطاف تم نسيان أن الزوج نمو/تقدم قد كان أيضًا، على مستوى كوكب الأرض، **مفعولاً ارتجاعيًا إيجابيًا**[1]، أي أنه كان عبارة عن عملية تسريع من دون رقابة ولا مقياس، وأن هذا النمو هو الذي كان موكلاً إليه عملية تنظيم العلاقات الاجتماعية الذي أصبح يُخضعها بشكل متزايد لاختلالاته.

لقد أصبح من الواضح، انطلاقًا من الآن، أن التطور التقني ليس مجرد تطور متدرج، أو ليس تطورًا مندرجًا بشكل شامل؛ إنه ينطوي على انحطاطات خاصة وينتجها: فالفكر التقنوقراطي لا يتصور ما هو حي، بشكل أنثربولوجي واجتماعي، إلا حسب منطق تبسيطي للآلات الصناعية؛ والكفاءة التقنوقراطية هي كفاءة الخبير، الذي ينطوي عماه الشامل على وضوح خاص؛ ولا يمكن للفعل التقنوقراطي أن يكون، سوسيولوجيًا وسياسيًا، إلا فعلا مبتورا وبتّارا.

وفوق ذلك، يبدو بديهيًا أكثر فأكثر أن التقنية لا يمكنها، مثل لغة إيزوب[2]، أن تصلح للأفضل كما يمكن أن تصلح للأسوأ فحسب، وهي بديهية بئيسة، بل هي من حيث كونها تحت رقابة وتوجيه وتنظيم سلطات الدول والإمبراطوريات، تكون بالأساس في خدمة الاستعباد والموت. وهي بإمكانها من الآن إبادة الإنسانية، في حين أن وعودها الجميلة والمحررة تتلاشى وتنمحي في الأفق.

---

(1) باللغة الإنجليزية.

(2) إيزوب Esope شخصية إغريقية عاشت بين القرن السابع والسادس قبل الميلاد، وينسب إليه تأسيس الحكاية الخرافية كجنس أدبي.

وأيضًا، ففي أثناء التطور، تنطوي العلوم على تقهقرات. وهذه التقهقرات هي ذاتها التي تسمح بظهور غطرسة الفكر التقنوبيروقراطي. وتنامي التوجه المغالي في تخصص العلوم يقطع عنّا إمكانية رؤية ما يحدث بين مجالات العلوم، أي رؤية ما يشكل الأمر الأساسي. ففي الوقت الذي تجهل فيه عمليةُ تقعيد الاستنباط وعملية التكميم الكائناتِ والموجوداتِ، التي تصبح من هنا بالذات غير مرئية وتترك مكانها للأرقام - للصيغ، ولتصورات مثالية، فإن الحياة هي التي تسقط في ثقب بين مجالات علوم الأحياء، والإنسان هو الذي يسقط في ثقب بين مجالات علوم الإنسان. إنها الذات، التي اختفت منذ زمن طويل من كل العلوم، هي التي ينظر إليها وكأنها استيهام محض، وهو ما شكل أكبر هذيان ذاتي يمكن تصوره. وهكذا إذن، لا تنتج تطوراتُ العلوم التفسيرَ فحسب، بل تنتج أيضًا العمى.

لا يتعلق الأمر هنا بتعويض فكرة التقدم بفكرة التقهقر، أي بإحلال تبسيط باترٍ بآخر. بل العكس، يتعلق الأمر بالنظر أخيرًا إلى فكرة التقدم على أنها فكرة مركبة. ومن أجل تحقيق ذلك، يجب هدم فكرة تقدم بسيط، مضمون، ويسير في اتجاه واحد، والنظر إلى التقدم على أنه متقلب في طبيعته متضمن لتقهقر كامن في مبدئه ذاته، تقدُّم **يعيش اليوم أزمة** على مستوى كل مجتمع، وبطبيعة الحال على مستوى مجموع الكوكب.

يجب علينا آنذاك أن نرى في الوحشية، لا فقط تلك التي لم يستطع التقدم الحضاري القضاء عليها، بل كذلك الوحشية التي أنتجها هذا التقدم الحضاري ذاته. **بل بإمكاننا القول إن الأشكال الجديدة للوحشية، المترتبة على حضارتنا لم تفشل في تقليص الأشكال القديمة للبربرية، بل إنها أيقظتها واقترنت بها**. وهكذا تبلور شكل جديد من

الوحشية شكل مُعَقْلِن، وتكنولوجي، وعلمي، يسمح بظهور تدفق قتّال حـــدث مع الحربين العالميتين، بل عمل على عقلنة الاحتجاز في صورة معسكر اعتقال، وعلى عقلنة التصفية الجسدية، باستعمال أفران الغاز، وعقلن التعذيب، وهي الوحشية الوحيدة التي بدت في السابق على أنها قد انقرضت في بداية القرن العشرين، ها هي الآن تعيش إعادة إحياء، بـــل إعادة تأسيس من قبل النازية والستالينية، ومن قبل فرنسا في فيتنام وفي الجزائـــر، وأصـــبحت ممارسَةً متداولَة في العديد من بلدان أفريقيا وآســـيا وأمريكا اللاتينية، تحت صيغة رجعية أو ثورية، «رأسمالية» أو «اشتراكية».

لقـــد توقع ماركس، في القرن الماضي[1]، بشكل جيد الصعود الظافر للوحشية داخل الحضارة. وقد أطلق فكرة الخيار بين أمرين: الاشـــتراكية أو الوحشية. لم يكن بإمكانه أن يتصور أن الاشتراكية والوحـــشية سيقيمان تحالفا؛ ذلك أن «الاشتراكية» التي تحققت لم تكـــن هي الاشتراكية المثالية التي توقعها، وإنما هي اشتراكية جهاز الدولـــة، الـــتي بإمكانها أن تضم وتُرَكِّز بين يديها وحشية سلطات الدولـــة (انظر في الصفحات اللاحقة العنوان التالي «**عصر الحديد الكوكبي**»، ووحشية الهيمنة البوليسية/العسكرية، ووحشية التقنية، ووحشية البيروقراطية.

هـــذا الاقتران الذي يتحقق بين الوحشيات يفتح نهاية قرننا على إمكانات للعبودية والإبادة المعممة: فبإمكان سلطات الدولة اليوم إبادة الكـــوكب؛ وبإمكانهـــا في الغـــد التصرف في الحياة، وتغيير الطبيعة، وإخضاع النفس البشرية.

---

(1) يقصد القرن التاسع عشر.

ليس من الأكيد قطعًا، بل من المحتمل فقط أن تصير حضارتنا نحو التحطيم الذاتي، **وإذا تحقق تحطيم ذاتي، فإن دور السياسة، والعلم، والتقنية والأيديولوجيا سيكون دورًا أساسيًا، في حين لو وصلت السياسة والعلم والتقنية والأيديولوجيا إلى درجة الوعي بذلك، فبإمكانها أن تنقذنا من هذه الكارثة وتحول شروط المشكل.**

بل هناك ما هو أعمق من ذلك. أدرك ماركوز أن حضارتنا الصناعية تغذي في داخلها تحطيمها الذاتي. وفي السابق، تبيَّن لوالتير بنيامين[1] أن كل تنمية تعيشها حضارة ما تنطوي على عكسها، أو على أساس وحشي. بل رأى فرويد[2]، سابقًا، قبل أن يصل هيتلر إلى السلطات، أن تنمية الحياة المتحضرة، بكبتها وكبحها لوحشيتنا العقلية ورميها في أعماق سحيقة، تساهم في تكدسها في الأعماق، إلى أن تصل إلى عتبة متوترة حيث قد يحدث انفجارها. وهكذا فالتنمية الظاهرة للحضارة هي تنمية الوحشية الكامنة. هل يجب على هذه الوحشية أن تنفجر في اللحظة القصوى للحضارة كما توحي بذلك خرافة الخيال العلمي لفيلم تحت عنوان **الكوكب الممنوع**؟ (نشاهد في هذا الفيلم أن الكريل، وهم سكان كون بعيد، قد وصلوا إلى مستوى من السيطرة على المادة بحيث إنهم قرروا التحول إلى مجرد أرواح. وهكذا حرّروا بعملهم هذا قوى هائجة هدّامة قضت عليهم).

يجب علينا النظر في الأمر التالي: هناك اقتران حاسم بين الحضارة/الوحشية، لا في الحضارات الكبرى السابقة، بل كذلك في حضارتنا الحالية. إن الحضارة، مهما كان الأمر، كما قلت في سنة

---

(1) فيلسوف وناقد أدبي من أصل ألماني ولد سنة 1892 وتوفي سنة 1940 ينتمي إلى مدرسة فرانكفورت.

(2) سغموند فرويد مؤسس التحليل النفسي، ولد سنة 1856وتوفي سنة 1939.

1958 (انظر كتابـــي: **نقد ذاتي**، ص. 227)، وأعيد قوله الآن (ليست سوى قشرة رقيقة موجودة على مستوى السطح الاجتماعي فحسب، بـــل موجـــودة أيـــضًا على صعيد سطح ذهننا.) إن الأمر الذي ينبغي الخوف منه، ليس هو انفجار داخلي مفاجئ للحضارة (لقد حدثت هذا في السابق، إذ حدثت انفجارات داخلية محلية، وستحدث مرة أخرى)، ولـــيس فقـــط ظهور الوحشية الكامنة في حضارتنا، إنه التحالف بين الوحشية الخارجية والوحشية الداخلية والاقتران بينهما.

كـــل المسارات التي انطلقت الآن بسرعة كبيرة وبتنامٍ ضخم في حاضـــرنا تقـــود، إذا اســـتمرت على وتيرتها هذه، إلى الكارثة، وإلى الـــرعب، وإلى الهيمـــنة الفائقة. وبهذا المعنى يكون الأسوأ أمرًا محتملاً. وكمـــا يقـــول نـــيكو تانبرغن[1]: «إن لم نغير طريقنا، فالفناء مصيرنا» (سَلُمون (Salomon)، انظر كتاب **مستقبل الحياة**[2] لكن لحسن الحظ، فالحرب ذاتها تعاني، في خضم هذا الأزمة الشاملة التي تعيشها المجتمعات والحضارات، أزمة، كما بين ذلك جيدًا فورناري Fornari[3]. فالخوف المتـــبادل بين الدول العملاقة قد أصبح بالفعل هو الرقيب الواقعي الذي أجّـــل إلى حـــد الآن وقـــوع الحرب العالمية الثالثة. والإبادة الممكنة للإنـــسانية أصبحت تكبح ذاتها، وهي التي تمنع إلى حد الآن التهديمات الجزئية من أن تتخذ طابعًا شموليًا. دخلت الحرب في أزمة عندما قامت تنمـــية تقنيات الإبادة وتكاثرها بتجريدها من كل معنى. لكن هذا لا

---

(1) Niko Tinbergen: عـــالم أوربـــي متخصص في دراسة سلوك الحيوانات ولد سنة 1907 وتوفي سنة 1988

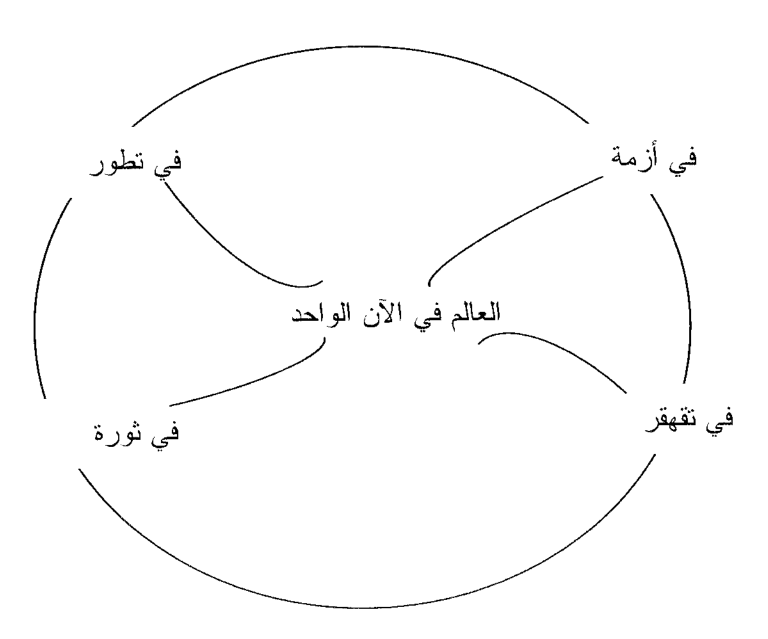
(2) M. Salomon, l'Avenir de la vie, éd. Seghers, Paris 1981

(3) فرانكو فورناري، طبيب إيطالي مختص في علم الأعصاب، ولد سنة 1921 وتوفي سنة 1985، من أعماله Psychanalyse de la situation atomique, Ed. Galimard, 1969, Sexualité et culture, éd. PUF, 1980.

يعـــني أن الجنون لن ينتصر. هناك انتحارات شعوب. ربما قد كان في إمكـــان هيتلـــر أن يقـــود العالم بأجمعه إلى حتفه، لو أمكنه ذلك. إذا اســـتطاعت شـــيوعية الجهاز المجازفة بكل ما لديها من قوة أو عندما تستطيع ذلك، فهل ستتورع أم لا عن قيادة الإنسانية إلى خرابها؟ وهل ستكون الإبادة الذرية عند ذلك الوازع النهائي أم الاستعمال النهائي؟ ما الذي ينبغي التفكير فيه؟ إننا نحيا في عالم يحمل في داخله، لا العديد من الحروب فحسب، بل أيضًا تهديد حرب نهائية ومطلقة، وهو تهديد لا يجعلـــنا، بوضـــعه للحـــرب في أزمة، نأمل إلا في إطار ما يدفع إلى اليأس...

المستقبل الضائع

كـــل شـــيء، في هذا العالم، يعيش أزمة. وأن نقول أزمة معناه أن نقول، كما رأينا، أن ملامح اللايقين تكبر. ففي كل مكان، وفي كل شيء يكـــبر الغمـــوض. معـــنى هذا أنه إذا استطاع الأنبياء التنبؤ، وإذا استطاع العـــرافون رؤية المستقبل، فلم يعد بإمكان المُشخِّصين تكوين رؤية واضحة ولم يعـــد بإمكـــان المتكهنين التكهن. فالحاضر في طور الهلاك. وكوكب الأرض يحـــيا، ويتـــرنح، يتدحرج، ويتجشأ، وهو في حالة فُواق وحزاق يومـــي. كـــل مـــا يحدث يحدث ويحيا في مدة قصيرة. والمستقبل ينمحِي خـــصوصًا وأنه يتوقف، لا على احتمالات وانعراجات (ربما أنها حصلت ســـلفًا...)، وإنما أيضًا على مخاطرة كلية محتملة. غير أننا لسنا مع ذلك في حالـــة تعتـــيم. إننا فقدنا التطور الخطي، والصيرورة المبرمجة بشكل مسبق، والمـــستقبل الآلي، لكنـــنا ربحنا مجموعة من الأفكار المأزومة. إننا نعلم أن تسلـــسلات الأزمات وتكاثرها غير مستقلة عن تطور كنَّا نعتقد أنه ينبغي أن نـــسميه تنمية وتقدم؛ ورأينا أن هذا التطور ينطوي بالفعل على تنميات وتقـــدمات، والتنمـــيات تـــنطوي علـــى تخلف والتقدمات تنطوي على تقهقـــرات. ونحـــن نعـــرف كـــذلك أن هذا التطور ينطوي على قطائع وتحـــولات جذرية، وأنه ينتج تحولات أكثر جذرية، بل إننا نعيش في قرن الـــثورات. ونحن نعرف أخيرًا أن التطور يميل إلى التحطيم الذاتي. وهكذا فإنـــنا نلفـــي أنفسنا في عالم يبدو لنا في الآن الواحد في طور التطور، وفي حالة ثورة، وفي تقدم، وفي تقهقر، وفي أزمة، وفي خطر.



يجب علينا ربط مفاهيم الأزمة هذه، أي مفاهيم التطور، والثورة، والتقهقر، عوض انتقاء مفهوم منها وإقصاء المفاهيم الأخرى. إننا نعيش في الآن الواحد كل هذا. وحيرتنا تكمن في عدم قدرتنا على معرفة أي هذه المفاهيم سيكون هو الحاسم في نهاية المطاف.

أزمة الإنسانية

لم نتوقف عن الإعلان في هذا الكتاب عن النبأ السيئ: لا وجود لخلاص تاريخي. ولسنا مهيئين للحل النهائي. لن نخرج من التاريخ. بل العكس، ينبغي علينا أن نعلم أننا لم نخرج أبدًا من التاريخ، وأن ولوج الروح إلى التاريخ، وهو ولوج ضروري وحيوي، سيصاحبه غرق واختناق. يجب علينا التخلي عن الآمال الأخيرة والمجنونة، آمال العالم الثالث، والتي تخليت عنها في سنة 1958: «يعيد العالم الثالث تاريخ القوميات الأوروبية وتاريخ بيروقراطية الاشتراكية، وفي بعض الأحيان يعيدهما بشكل متزامن، بخصائص تكون تارة تدريجية وتارة أكثر انتكاسية.» (انظر كتابي: **نقد ذاتي**، ص. 221).

لكن إذا استمر الكل، وإذا عاد الكل مرة ثانية، فهناك بُعْد جديد بشكل جذري في التاريخ وهو المتمثل في الانبثاق الكوكبي للإنسانية – أو انبثاق الإنسانية الكوكبية. فكل الأزمات التي تحدثنا عنها تحمل في داخلها بشكل متباطن البعد الكوكبي. فكل الفوضى التي يعيشها حاضرنا وكل أزماته تحمل معها الفوضى التاريخية وأزمات الماضي، وتشكل امتدادًا لها، لكن حالة الفوضى في الوقت الحاضر لا يمكن اختزالها في ذلك، والسبب راجع إلى الخاصية المتميزة التي تتحلى بها وهي الخاصية الكوكبية.

ومنذ خمسين ألف سنة توزع **الإنسان العاقل**[1] على مجموع القارات، واستمر تكاثر الشتات الإنساني، وتدعم خلال آلاف السنين. لكن الإثنيات سجنت ذاتها في لغتها، وثقافتها، واعتقادها. كانت الحضارات تتواصل تدريجيًا فيما بينها، لكن التباعد الكبير الذي حصل للقارات أدى إلى تباعد المجموعات الإنسانية المتواجدة في أمريكا، وفي إفريقيا، وفي آسيا وفي أوربا، بل ظلت إمبراطوريات وحضارات جاهلة لبعضها البعض رغم تواجدها في قارات شاسعة. كانت هناك تواريخ، متنوعة، متعددة، ومتفاوتة زمنيًا، ولم يكن هناك تاريخ واحد.

والواقع أن الإنسانية لم تبدأ في الظهور، تدريجيًا وبشكل ضبابي، عبر التواصل المتبادل والتفاعل بين قارة وأخرى إلا بعد اكتشاف أمريكا. ظهر العصر الكوكبي في القرن التاسع عشر، في اللحظة التي بدأ فيها انتشار التكنولوجيا، والسلاح، والامبرياليات الغربية يكتسح الكرة الأرضية. وفي القرن العشرين عملت الحربان العالميتان في الآن الواحد على تمزيق العالم وعلى توحيده. وانطلاقًا من الآن، أصبح الثوب الأول الرابط لتأسيس الجسم الأرضي الكبير منسوجًا ومُعاد النسج بفعل مليارات التواصلات، والترابطات، والتأثيرات المتبادلة، والتأثيرات الارتجاعية لا على المستوى التقني والاقتصادي والمعلوماتي، والأيديولوجي والثقافي فحسب، ولكن أيضًا على المستوى البيولوجي (الاتحاد الميكروبي للعالم، الطابع العالمي لأوبئة الزكام التي تحدث سنويًا، اختلاط متزايد بين الأجناس، إلخ.). واليوم، هناك زمن مشترك يوحد مختلف الأزمنة. وتُشكِّل حلقات متعددة من طبيعة إحيائية – إنسية – ثقافية الظهورَ الأول لإنسانية أخذت شذراتها المتناثرة في الاجتماع. ولأول مرة، وأمام شاشات

---

(1) باللاتينية.

التلفــزة، تأمـــل كوكب الأرض ذاته من خلال لقطات بعثتها المركبة الفضائية التي حطت على القمر.

أخـــذ الوعـــي الكوني، والوعي بوجود إنسانية، في التشكل وفي إعـــادة التشكل، على الرغم من أن دعاة الأممية كسرتهم ضربات دعاة القومـــيات والتهمـــتهم. وليست الإنسانية فكرة مثالية فحسب: لقد أصـــبحت قَـــدَرًا مشتركًا. فالإنسانية، التي تشكلت من جراء حربين عالميتين، أصبحت، منذ هيروشيما، مجتمع الحياة أو الموت. لقد عاشت الإنـــسانية مـــوتها الكموني قبل أن تتمكن من الخروج إلى الوجود. إن الـــتهديد بالإبـــادة هو الذي أعطى الإنسانية قوة التوالد وحوَّل فكرة مجردة إلى واقع ملموس. وهذا البعد الملموس يتغلف ببُعد ملموس كوني آخـــر، أصـــبحنا على وعي بوجوده بفضل العلم البيئي، وهو المتعلق بالمحيط الحيوي، وبمجموع التنظيم - الاقتصادي - الذاتي الذي تؤسسه المفعـــولات الارتجاعية بين كل الكائنات الحية، بما فيها نحن، الموجودة على كوكبنا. وأخيرًا، فالمغامرة الفضائية هي أكثر من مغامرة روسية أو أمريكية، إنها مغامرة إنسانية. فإقدام **الإنسان**[1] وفضوله هو الذي يحرك مشروع اكتشاف الكون، وليس فقط عُظَامُ الإمبراطوريتن[2]. وهكذا أصبحت الأرض مركبة فضائية.

وهكـــذا، شـــكّل الأساس البيولوجي **لنوع الإنسان العاقل** من خلال التنوع الثقافي الهائل، الأرضية التي أخذت تتأسس عليها الإنسانية في شـــكل كـــيان جغرافي كوكبـــي، وتتَّحدُ تحت شعار التقنية التي تسمح لها بإنجاز كل التواصلات المتقاطعة، وتعي ذاتها في وحدة المصير داخل المجال الحيوي، وأخيرًا، تبرز كوعي...

---

(1) كلمة وردت باللاتينية.

(2) يقصد الولايات المتحدة الأمركية والاتحاد السوفياتي السابق.

من السهل أن تتآلف الإنسانية، وأن تصبح وحدة، دون أن تتوقف عن التنوع. فكل جهاز عضوي من أجهزتنا يشكل جمهورية تتأسس من ثلاثين مليار خلية. فلماذا لا تتمكن فيدرالية مكونة من بعض مئات الأمم ومن ثلاثة إلى ستة مليارات من **الكائنات العاقلة**[1]، من تنظيم ذاتها؟ وليس من المعقول، بل من الحيوي تصور ذلك: فالخطر القاتل الذي يتهدد مجموع الإنسانية والمترتب على صدام الإمبراطوريات والقوى تدفعنا إلى تصور فدرالية إنسانية تتضمن الدول - الأمة، تحترم أصالة وخصوصية هذه الدول وتجردها من قواها التامة، وتكبحها وتضبطها..

وهناك بالضبط يصاب كل شيء بالتعثر، والانـزلاق، والانحياز جانبيا، والطيران، وفقدان الصواب... والظهور الضبابي والتدريجي للإنسانية ينحل في الوقت ذاته الذي تحاول فيه الخروج إلى الوجود. والأزمة الكوكبية تصبح انطلاقًا من ذلك، أزمة تكوكب. فالتكوكب الذي يتم داخل التقنية ومن خلالها، داخل وحدة المصير ومن خلالها، لا يتحقق على مستوى إنسانية مقسمة وممزقة بين أمم، وإمبراطوريات، وأعراق. وحيثما تقدم هذا التكوكب بفضل الهيمنة وبفضل عملية التجانس، هناك تقهقر. **وهكذا نرى أن أزمة التكوكب هي أزمة الإنسانية التي لا تستطيع التأسيس على شكل إنسانية، وهي أزمة العالم الذي لم يستطع بعد أن يصير عالمًا، وهي أزمة الإنسان الذي ما زال عاجزًا عن التحقق كإنسان..**

---

(1) باللاتينية في الأصل.

العصر الحديدي الكوكبي

ويمكننا الآن أن نموضع ذاتنا بالنسبة إلى الماضي، والحاضر والمستقبل الذي هو في حالة تكوين داخل الحاضر المتقلب. إننا موجودون في عصر ما قبل تاريخ الروح الإنسانية.

والمشكل الأنثروبولوجي للنظام الاجتماعي وللحياة في داخل المجتمع لم يجد حله الأساسي. إننا نعيش في عصر الأزمات، أي ضجيج وهيجان، تقدمات/تقهقرات. ورغم ذلك فإننا وصلنا، في الوقت نفسه، إلى العصر الكوكبي حيث تحاول الإنسانية الخروج إلى الوجود.

إننا موجودون في العصر الحديدي الكوكبي.

وهذا العصر الحديدي هو في الوقت نفسه عصر أوراني[1] بالنسبة للدول – الأمة.

إننا نعلم أن الدولة ظهرت في الوقت نفسه الذي ظهرت فيه المجتمعات التاريخية، وذلك منذ عشرة آلاف سنة. لكن لم يتم تأسيس الدول الأمة الحديثة تأسيسًا تامًّا وحقيقيًا في نهاية القرن الثامن عشر، إلا بعد مخاض طويل. ولا يتعلق الأمر فقط بدول مكوّنة من مدن صغيرة مستقلة أو بدول فرضت وجودها على اجتماع هش من الأعراق المختلفة (إمبراطوريات)، وإنما يتعلق بدولة مرتبطة بمصير مشترك يتم تحديده ثقافيًا، ولغويًا وأسطوريًا (الإحالة إلى شعار «الوطن الأم» الذي

(1) نسبة إلى أورانوس، وهي كلمة تدل في الميثولوجيا الإغريقية على السماء من حيث هي تمظهر للمقدس.

يمــنح للدولة – الأمة جوهرها الأمومي والأبوي بالنسبة لمواطنين يُنظرُ إلـيهم كأطفـال والـذين تربطهم علاقات الأخوة). توزعت صيغة الدولـة – الأمة على أمريكا وأوربا لكنها لم تشمل العالم كله إلا في القـرن العشرين، وتمكنت بفعل حركات مقاومة الاستعمار في العالم الثالث، من تعمير الكوكب.

فمـن جهة، يبدو لنا أن تحقيق الوجود الوطني بمثابة لحظة إيجابية لتحـرر الأعـراق الـواقعة تحت سيطرة الاستعمار الغربي. ومن جهة أخـرى، يـبدو لنا أن تكاثر الدول – الأمة وبلقنتها بمثابة فشل صيغ الفدرالية في أميركا اللاتينية («حلم» الزعيم الأمريكي اللاتيني بوليفار)، ثم في آسـيا وإفـريقيا. والأكثر من ذلك، عجز الشعوب أو الأمم عن الدخول في نظام فدرالي، في أوربا كما هو الشأن في مجموع العالم، في بداية القرن العشرين، واجتياح الشوفينية الحربية في سنة 1914 لفرنسا وألمانـيا حيث كانت الطبقات العاملة قد اندمجت في فكرة الأممية، ثم الخـضوع الذي تحقق لا من طرف الاتحاد السوفياتي للأهداف الأممية للـثورة الكوكبـية، وإنما خضوع الأهداف الأممية التي تبنتها الأحزاب الشيوعية للمصالح الوطنية للاتحاد السوفياتي؛ كل ذلك لا يسجل فقط الـتواري المستمر للنـزعات الأممية الثلاث تحت النـزعات الوطنية، وإنما فشل ثورة القرن العشرين.

مـا أريد أن أقول هنا هو أنه على أي تصور استِرجاعي أن يعيد النظـر في الإمكانات، والمشاريع والولادات التي أُجْهِضَت أو تم تحويل مجـراها خـلال الجـزء الأول من القرن. كانت هناك في بداية القرن العـشرين، انطلاقـة فكرة الأممية الثانية التي جلبت معها بداية تشكل «للظهور الضبابـي والتدريجي» للإنسانية، على قاعدة تآخي العُمّال. لكن الفشل الأول لم يعمل، بطريقة غير مباشرة، إلا على دعم الأمم –

الدول، إلى أن وصلت اللحظة التي ساعدت فيها المجزرة البشعة وعبث الحـــرب، بطريقة غير مباشرة ومعاكسة، على انبثاق أمل في ظهور أممية ثـــورية جديـــدة؛ وعـــندئذ بدت موسكو كأول غزو تحققه الإنسانية الجديدة: «لقد تحرر سدس الكوكب»، ذلك ما تغنَّت به الأجيال، ومن ضمنها جيلي مرحلة المقاومة؛ لكن الفشل الثاني، وهو الحاسم والنهائي قـــد تحقق سلفًا، مُحرِّرًا هذه المرة الشكل السامي والوحشي للدولة – الأمة، وهو شكل الاشتراكية الوطنية أو الوطنية الاشتراكية. وبالفعل، أصـــبح الاتحـــاد السوفياتي أمة روسيا الكبرى يميل نحو الهيمنة ثم نحو الأمـــبريالية؛ والاشـــتراكية استطاعت (في بلد واحد) بتقَوْلُبِها في الأمة واندماجها فيها أن تصبح قومية ثم وطنية، في حين أن الفاشية الإيطالية، ثم النازية الألمانية، خلقتا الصيغة الموازية، والمنافسة، والمعادية، والمختلفة، لكـــنها الشبيهة بالوطنية – الاشتراكية. والعنصر الجديد، في كل هذه الحـــالات، هـــو تأسيس الحزب – الدولة، واحتكار السلطة، وتركيز السلطات بين يدي الحزب، الذي أصبحت تشغل قنواته العصبية مجموع نسيج الجسم الاجتماعي إلى أصغر خلاياه.

طـــرح القـــرن التاسع عشر أمام العالم فكرة الأمة، وطرح القرن العشرون أمام العالم فكرة الأمة الاشتراكية. وانطلاقًا من ذلك، ولدت شروطُ التقهقر التي تميزت بها أزمة القرن العشرين بشكل حتمي انطلاقةَ النموذجِ الوطني الاشتراكي وانتشاره، تارة تحت شكل ستاليني متشدد، وتـــارة وفـــق صيغ مستقلة ومركبة إلى حد ما. وقد تم في كل مكان تحـــويل الـــتطلعات التحـــررية التي تغذي ساحة الأيديولوجية الوطنية والأيديولوجـــية الاشـــتراكية وانحرافها، وقلبها لصالح هيمنة جديدة. والمحاولـــة النهائـــية ذات الطابع الأممي، أي محاولة الأممية الرابعة، ظلت انحـــرافًا مُشجيًا وتراجيديًا (إنها تشهد على القدرة الفكرية للماركسية

التروتسكية لتحمل قدر الإنسانية، هذا مع عدم قدرتها على الارتقاء إلى المستوى المركب للمشكل). لقد أصبحت فكرة العولمة فكرة أرباب العمل...

إن فشل ثورة القرن العشرين فشل حتمي. فهل كان هذا الفشل قدرًا أم لا، هذا سؤال آخر. وعلى كل حال، فقد تم حسم مستقبل العالم في سنوات 1914 و1917، و1924، و1935، و1937، و1941، و1945. لكن المهم هو أنه كانت هناك محاولة أولى وعظيمة من أجل طرح نظام كل مجتمع من المجتمعات، وطرح مشكلة الإنسانية. وسأظل وفيًا لذلك إلى الأبد.

إلا أن الفشل لا يقل أهمية عن ذلك. لقد أصبحت الأمة الاشتراكية لحظة حاسمة في تطور السلطة المطلقة للدولة _ الأمة. وهذا لا يفيد أن كل الدول - الأمم ستخضع لهذه الصيغة أو ستبحث عنها. وليس من المؤكد أن انتصارها أمرٌ حتمي في الألفية الثالثة. لكن النادر هو أن تجد دولا - أمما خارج مجال العدوى.

إن هذه الصيغة القصوى للدولة -الأمة تطرح انطلاقًا من ذلك، في صيغتها المضخمة، مشاكل تثيرها وجود الدولة-الأمة على مستويين إنسانيين أساسيين؛ وهما مستوى الأفراد من جهة، ومستوى الإنسانية من جهة أخرى.

يمكن القول، من وجهة النظر الأولى، أن الدولة الديمقراطية القائمة على التعددية قد أقامت علاقات رقابة متبادلة ومتزامنة ومتكاملة بين سلطات منفصلة، وأحزاب متصارعة، وبين الفرد/الدولة، علاقة تكرارية حيث تكون فيها الدولة المُراقِبَة مُرَاقَبَة من طرف أولئك الذين تراقبهم. إلا أن التطورات ذات الطابع التقنو - بيروقراطي لدولة العناية الحديثة تميل إلى ضمان أمن الفرد وإلى حمايته، في الوقت الذي تميل فيه إلى

إعفائـــه من المسؤولية في مجالات أساسية في حياته. لكن ظهور التصور الشمولي هو الذي جعل الدولة تميل إلى تجريد الفرد كليا من المسؤولية. والحق مع حنّا أرندت عندما تجعل من شخص آيشمان Eichmann[1] مـــثالا صارخا يتجاوز الحركة النازية كي يسلط الضوء على تراجيديا حديـــثة: أيـــشمان «الخاضع للأوامر». فالنظام الشمولي يحطم العلاقة التكـــرارية بين الفرد -الأمة، حتى وإن لم يكن للدولة ذرة واحدة من الوجود خارج التفاعلات بين الأفراد المكونين للأمة. إننا نصل هنا إلى مـــشكل شديد الخطورة، مشكل رسمت خطاطته في موضع آخر (انظر كتابـــي: **المنهج**، **II**، ص. 252-254، 299-302). أورد هنا المقطع المتعلق بما أتحدث عنه

هـــناك قـــوة جديدة وهائلة للدولة تميل إلى التمركز خلال هذا القرن.

1. أصـــبحت الدولـــة أكثـــر فأكثر دولة - العناية ودولة المساعدة (Welfare state).وبمعنى أولي تتفانى الدولة أكثر فأكثر في حماية الأفراد وفي توفير رفاهيتهم، لكنها في الوقت نفسه، تنشر كفاءاتها في كـــل مجـــالات الحياة الفردية، التي أصبحت محاصرة في شبكة مـــتعددة الأشـــكال، لتصبح في الوقت نفسه ملجئًا (فهي تحمي مواطنـــيها، لكـــنها تعاملهم عند الاقتضاء وكأنهم أطفال) وفخًّا. وهكذا تتبلور دولة، لا دولة شمولية بالتأكيد، وإنما دولة شاملة، أي دولة تُغطِّي كل أبعاد الوجود الإنساني.

---

(1) أيـــشمان، أدولف (1906-1962) مسؤول عسكري في القيادة النازية خلال الحـــرب العالمـــية الثانية. يعتبر أحد المسؤولين عن المحرقة اليهودية. بعد انـــتهاء الحرب فر إلى الأرجنتين، لكن مصالح الموساد قبضت عليه وأعدم بعد محاكمة شهيرة في إسرائيل سنة 1962.

2. إن التطور المثير للمعلوماتية التي يتم اليوم تقدير ومناقشة تناقضاتها (راجع كتاب نورا ومانك. 1978)[1] يسمح برؤية إمكانات مدهشة لإحداث عدم تركيز ولامركزية تواصلية يستفيد منها الأفراد. لكن المعلومـــيات تمنح، في الوقت نفسه، جهاز الدولة المركزي إمكانية تجمـــيع كل المعلومات عن فرد من الأفراد ومعالجتها بكيفية أكثر تـــشعبًا ودقة من الرقابة العصبية الدماغية التي تمارسها على خلايا أجـــسامنا. وعندئذ، يمكن لرقابة بوليسية/تكنولوجية (مزودة بجهاز للكـــشف والتـــصنت في كل المجالات) أن تمارس ذاتها على كل انحـــراف، وتـــشوه وأصالة. وإلى هذا ينبغي سلفًا إضافة الأفعال البيوكيماوية المستقبلية الذهن ⟵ الدماغ ⟶ الإنـــساني التي تسمح بإرساء قواعد معممة بإقصاء كل انحراف. فمـــنذ الآن، أصـــبحت الدولـــة مجهزة بسلطات تتجاوز، بشكل افتراضي، كل سلطات الرقابة والتدخل التي يمكن تصورها.

3. وهـــنا بالـــذات، ينبغـــي إدراج المجـــرى الـــذي يـــبدو هامشيًا وسوسيولوجيًا ثانويًا والذي وصفتُه في موضع آخر (انظر كتابـــي المنهج، I، ص 12-14[2]): إن إنتاج المعرفة العلمية بهدف التفكير فيها وتأملها من طرف العقول البشرية أصبح في تناقص، وفي مقابل ذلك تزايد تراكمها من أجل حسابها من طرف الحواسيب، أي من أجـــل استعمالها من قبل كيانات فائقة الفردانية، وبالخصوص من

---

(1) الإحالة هنا إلى كتاب سيمون نورا، تحت عنوان L'informatisation de la société, rapport au président de la République, La Documentation française, Paris 1978 ; également publié au Seuil, Paris, 1978,

(2) Edgar Morin, La Méthode, I, p. 12-14.

قبل كيان فائق الكفاءة والحضور: أي من قبل الدولة. وفي الوقت نفسه وبترابط مع ذلك، يعمل هذا العلم ذاته على تضليلنا: فوجه عالمِنا، ومجتمعنا، وقَدَرِنا فتنته معرفة علمية ما زالت اليوم غير قادرة علَى التفكير في الفرد، وغير قادرة على تصور فكرة الذات، وغير قادرة على التفكير في طبيعة المجتمع، وغير قادرة على بلورة فِكْرٍ لن يكــون فقط مصاغًا بشكل رياضي، وبشكل صوري، واختزالي، لكــنه، في مقابــل ذلك، فكر قادر على إمداد السلطات بتقنيات جديدة للرقابة، والتصرف، والقمع، والرعب، والهدم.

إنــنا نقترب إذن من اللحظة التي نستطيع فيها تصور أن كل هذه المسارات المقترنة بإمكانها أن تسمح لهذا الصنف الثالث (أي للدولة – الأمــة) مــن الــتحقق بكل قوة، لا بإخضاعنا والتصرف في مصائرنا فحسب، بل أيضًا بإضفاء الطابع الطفولي علينا وبنــزع كل مسؤولية عــنا وبتجــريدنا مــن كل تطلع لاكتساب معرفة والحق في إصدار الأحكام.

وليست هذه الفرضية عبارة عن لعبة ذهنية، ما دامت الدولة التي يتحــتم علــيها هذا التحقق قد ظهرت في القرن العشرين: أي الدولة الــشمولية وهــي تحل، تحت أشكال متنوعة، في كل القارات، وكل الحــضارات، وكل المجتمعات تحت دافع، ورقابة، وامتلاك جهاز مطلق الــسلطات في حــوزة مالــك واحــد: وهو الحزب الذي يملك كل الكفاءات، والذي بين يديه حقيقة الإنسان، والتاريخ، والطبيعة.

وعــندئذ، يكفــي أن تُركِّــز هذه الدولة الشمولية كل أشكال الهيمــنة/الــرقابة، لا في المجال البيروقراطي، والبوليسي، والعسكري، والأســطوري، والسياسي فحسب، بل أيضًا في المجال العلمي، والتقني، والمعلــوماتي، والبيوكميائي، كي يتم إخضاع الطبقات، والجماعات،

والأفــراد، لا إخضاعًا شاملا فحسب، بل إخضاعًا غير قابل للرجوع. وكي تحدث تراجعات على مستوى الحقوق الفردية ليس بشكل شمولي فحـــسب، بـــل أيـــضًا بشكل غير قابل للعودة إلى الخلف. بإمكاننا، بالتأكـــيد، أن نأمـــل أن تصبح هذه الدول الشمولية المعاصرة وحوشًا مؤقـــتة وُلدَت من جراء احتضار هذا القرن ومن مخاضه. لكن من حقنا أن نخـــشى أيـــضًا أن تتمـــتع هـــذه الوحوش بحياة مستديمة في هذا الإخضاع/الرقابة البنيوية على الأفراد وبفضله...

لنتأمل الآن من وجهة نظر العصر الكوكبـــي هذه الدول - الأمم. إن الـــدول - الأمـــم عبارة عن وحوش مصابة بهذيان ذهاني إذ أنها تَعْتَبرُ بمـــثابة عـــدوٍّ **مُسْبَقٍ** كلَّ قريب وبمثابة متهمٍ كلَّ رعية من رعاياها. وهي وحـــوش يـــواجه بعـــضها البعض مثل ديناصورات وزواحف مجنحة، في هـــيجان دموي مجنون أكثر فأكثر. وهي لا تعترف بأي قانون يتعالى على إرادتها الوحشية. والمعاهدات التي تُبرِمُها هي دائمًا عبارة عن أوراق مهملة تمـــزقها كـــل علاقة قوة جديدة، غير قادرة على الشعور بالحب وعديمة الوعـــي. أمـــا نحن، الأفراد، نحن الذين نشكل الإنسانية، فإننا تابعون كليًا لانـــدفاع وجـــنون وقـــساوة هذه الوحوش الأورانية(1) التي تحمل مصير الكـــوكب بـــين أيديها. فمن الأكيد أن الدول - الأمم هي أصل التهديد الأسمـــى الذي يجثم على الأفراد من حيث هم أفراد (الاستلاب الشمولي) وعلى الإنسانية من حيث هي إنسانية (الفناء الكامل).

وهذا يعني أننا ما زلنا في الحقبة الثانوية للسياسة. كما أننا ما زلنا في عـــصر مـــا قبل التاريخ للمنظمات الاجتماعية، والروح الإنسانية: العصر الحديد الكوكبـــي.

---

(1) أورنوس، مصطلح ينتمي إلى الميثولوجيا الإغريقية ويدل على ما ينتمي إلى السماء من حيث هي تمظهر للمقدس.

فرضية الهيمنة وأوروب

في إطار هذا العصر الحديدي ينبغي التكهن بمستقبلنا، الأوروبي المحلي أولا، وبمستقبل الحضارة والعالم.

يجب علينا مواجهة فرضية هيمنة كبيرة لإمبراطورية بإمكانها أن تنتشر على أكبر جزء من كوكب الأرض. وبمعنى ما، يملك الاتحاد السوفياتي قوة عسكرية عالمية هائلة. ومع ذلك، فهذه القوة الهائلة هي كذلك ضعف هائل، كما رأينا ذلك سابقًا، ويكفي أن يحدث تمزق أو قطيعة انطلاقًا من القمة ليصل التفكك المتسلسل إلى مجموع النظام.

وهذا الضعف مع ذلك هو الذي يغذي هذه القوة الهائلة للقمع، وللدفاع، وللهجوم التي يتصف بها الاتحاد السوفياتي. ولأن الشيوعية فشلت في تحقيق غاياتها فإنها نجحت، من حيث هي جهاز، في وسائلها من أجل إنقاذ سلطتها وتقويتها، وهي تشكل اليوم السلطة الوحيدة القادرة على القضاء بشكل ممنهج ودائم على كل شكل جنيني من أشكال المعارضة. وكلما حدث فشل داخلي (أيديولوجي، واقتصادي، واجتماعي)، راهَن النظام على نجاحه الكبير (المراقبة التي يمارسها الجهاز، القوة العسكرية)، وتقدمت هاتان القوتان إلى الأمام، ودفعتا النظام ذاته إلى الأمام. ويكفي عندئذ أن يكون أعداءه في حيرة، ومجردين من كل قوة، وغير قادرين، وفي ذهول، كما هو حال أغلبهم الآن سلفًا، ويكفي أن تكون الولايات المتحدة الأمريكية في أزمة طارئة أو دائمة، كي ينشر النظام إلى حد ما هيمنته على العالم القديم وعلى

جنوب العالم الجديد. لكن لم نقل بعد أن بإمكان هذا النظام أن ينجح في تحقيق الهيمنة العالمية، ولم نقل بعد أن تحالفًا دفاعيًا من أقصى الغرب، وأقصى الشرق وأوروبا لن يستطيع، في **آخر لحظة**[1]، تهديده. وعلى كل حال، فحتى في حالة انتصار الجهاز المركزي لإمبراطورية الشمال، فإنه لن يستطيع الحفاظ بشكل دائم على انتصاره. أكيد أن هيمنته، على المدى القصير والمتوسط، ستكون فظيعة. سيُغلق مدرسة أثينا، وفيينا، وفرانكفورت، وباريز. لكن، مثلما أن العصر الوسيط المسيحي استطاع الحفاظ على فلسفة أرسطو، فإن الشيوعية الوسيطية الجديدة ستحتفظ في شكلها البذري، في أعماق جحيم خزاناتها ومتاحفها، بكنوز ثقافتنا. سيُفْني العديد من الأحياء، لكنه سيحتفظ بكثير من الأموات، الذين سيكون باستطاعتهم العودة إلى الحياة. سيفشل الجهاز المركزي، عاجلا أم آجلاً، في ادّعائه مراقبة التاريخ والإنسانية. يبقى فقط أن نتمنّى أن لا يجر معه التاريخ والإنسانية في انهياره. وهل ستنجو أوروبا من ذلك؟ وهل ستخضع لتبعية؟ وهل ستصبح قرنًا وسيطيًا جديدًا؟ فضاء مغلقًا؟ هل ستصبح من جديد بؤرة للحضارة، وفضاء متوسطيًا جديدًا في عالم من القارات المتماسكة، أو ستنطفئ تحت كمامة، في حين سينفتح فضاء متوسطي جديد في المحيط الهادئ الشمالي، بين كاليفورنيا واليابان والصين؟ هل سنكون مثل المدن الإغريقية التي انبطحت أمام مقدونيا، أو مثل هذه المدن ذاتها التي رفعت، قبل قرن من ذلك، التحدي ضد إمبراطورية الفرس؟ وهنا أيضًا لا يمكننا التكهن. ربما أن كل شيء قد انقضى سلفًا؟ لكن ربما أنه لم يتحدد مصير شيء. سيعرف ذلك أحفادنا بعد أن يكون كل شيء قد انقضى. إننا اليوم موجودون في لعبة واسعة من الإمكانات، لا لأن

---

(1) باللاتينية في الأصل

عالمنا لا يخضع لتحديد، وإنما على العكس، لأنه عالم خاضع في كل الجوانب لانحرافات، وتحولات، وتقدمات، وتقهقرات، وابتكارات...

وعلى كل حال، يبدو أن الإنسانية لا يمكنها أن تتفادى السديم. المشكلة تكمن في معرفة ما إذا كان الأمر يتعلق بسديم صغير، أي بحروب، لكنها حروب محلية، من دون أن تكون حروبًا شاملة، أو بسديم كبير، أي بانفجار متسلسل بإمكانه الوصول إلى الفناء الذري. وما إذا كان الأمر يتعلق بسديم قصير، سيدوم لبضع عقود، أو بسديم طويل الأمد سيدوم قرونًا.

إن فكرة السديم هذه، في نظري، تحمل شيئًا من طبيعة احتضارية. وينبغي أن نضع في كلمة احتضار معنى الأزمة القصوى، أي الصراع بين الحياة والموت، بين الولادة والتحلل.



الاحتضار

وهنا مرة أخرى، يمكننا أن نشعر، في حاضر هذا القرن سلفًا، بالدوران الاحتضاري، حيث إن قوى الحياة وقوى الموت لا تتصادم فحسب، بل إن الواحدة تعمل بلا تمييز لصالح الأخرى. فمنذ الآن بزغ المستقبل في كل جهة، باندفاع هائل، مع أنه عاجز عن الخروج إلى الوجود.

واليوم، تسير القوى الحاملة للموت بسرعة أكبر من القوى الحاملة للحياة، وهي قوى تتنامى مع ذلك بسرعة. وقوى البلادة تواصل تقدمها بسرعة أكبر من قوى النباهة التي هي مع ذلك تسرع الخطى منذ سنة 1970. وقوى الاستعباد تبلور وسائلها بسرعة أكثر بالمقارنة مع قوى التحرر التي كثيرًا ما تعمل بحرارة من أجل الاستعباد والموت. وفكرة الثورة الضرورية في العلاقات الإنسانية، والاجتماعية والعالمية، أخذت تنتشر، لكنها ما زالت حبيسة الثورة المضادة التي تعمل، تحت قناع الثورة، على نشر إمبراطوريتها وتقويتها.

هل ستستمر سيرورة التبليد والاستعباد والفناء في كونها هي الأسرع؟ إذا كان الجواب بنعم، فعندئذ نكون قد انطلقنا في سباق جهنمي نحو الموت، وسيصبح المستقبل فناءنا القريب. واليوم يعتبرُ مكسبًا كون الحرب العالمية الثالثة قد تم تأجيلها منذ سنة 1947. لكن ألم نفقد كل شيء خلال هذه السنين التي كسبناها؟ هناك خطر مميت، وهو ليس موجودًا في القنبلة وحدها، والتي ليست سوى مادة الأورنيوم

أو الهيدروجين. إن خطر الموت موجود في اقتران وتعاون الدول الفائقة القوة، واقتران تقنيات المناورة، والاستعباد والإفناء، والأساطير المجنونة. إن الخطـــر كـــامن في تلاحم قوى الاستعباد السياسي، والتكنولوجي، والإحيائي، والمعلوماتي، وفي تدفق المسارات الديموغرافية، والاقتصادية والبيئية.

لكـــن بإمكـــان كـــل شيء أن يتغير مرة أخرى، في داخل هذا الاحتضار الحامل لنهاية محتملة للعالم ولمخاض محتمل لعالم ممكن...

ولادة جديدة وثورة

لقد أجّلْتُ فكرة الثورة وبددتها من حيث هي حلٌّ نهائي أو «نهاية التاريخ»، لكنني لم أتوقف عن الاعتراف بعمق التطلعات الثورية وبـ «حقيقتها» التي ظهرت خلال هذا القرن. وفوق ذلك، فمجرى التحطيم الذاتي للحضارة وللإنسانية لا يمكن إيقافه بعلاج آتٍ من أصول تقنو - بيروقراطي - دولية للشر. إن أزمة الثقافة، مثلها مثل أزمة الحرب، تدفعنا إلى تحول عميق في علاقة الفرد بالفرد، والفرد بالمجتمع، والمجتمع بالإنسانية. من هنا أصبح من المُلِحِّ ومن الجذري أكثر من أي وقت مضى التفكير في الضرورة التي تعبر عنها كلمة الثورة مع العلم أنها كلمة ملوثة وملطخة وغبية (لكن هل هناك كلمة هامة ليس ذلك هو حالها!).

لكن **لا يتعلق الأمر هنا بصراع نهائي، بل بصراع جديد أساسي.** يتعلق الأمر بتصور ولادة جديدة، ستكون مرتبطة بولادة إنسانية غير موجودة وفي طور الكمون. لم يعد الأمر يتعلق بتحقيق وعود التقدم، وإنما بتثوير هذه الثورة ذاتها. فالتغيير هو الذي ينبغي أن يتغير.

ينبغي إعادة التفكير في كلمة «ثورة» إعادةً كاملة. وفكرة الثورة الجديدة ليست وعدًا وليست اكتمالاً. لم يعد الأمر يتعلق بكلمة حل، وإنما بكلمة مشكلة. وعندما نتصور أن الحل هو الحزب الثوري، أوالطبقة الثورية، أو غزو السلطة، أوامتلاك وسائل الإنتاج، أومعرفة

قوانين المجتمع، فإن هذا بالضبط هو الذي يجسد المشكلة تجسيدًا تراجيديًا. لم يعد هناك حزب منقذ، أو طبقة مُنْقذة، أو شعب مُنْقذ، أو فكرة مُنْقذة. لا يتعلق الأمر فقط بإقصاء الطبقة المهيمنة السابقة: ففوق أرض تمت تسويتها تنشأ طبقة جديدة وهيمنة جديدة وعتيقة: لذلك ينبغي مواجهة مشكل الهيمنة في بنياته الذهنية والتنظيمية. ولا يتعلق الأمر بالمبالغة في امتلاك وسائل الإنتاج امتلاكًا جماعيًا، وإنما بنزع الملكية المشتركة ومنح الاستقلال الذاتي للجماعات. ولا ينبغي على الثورة أن تظل رهينة تحويل بنية تحتية مفترضة سينتشر منها التغيير على كل البنيات الفوقية. لقد كان ثوريو القرن الماضي مسكونين بالمشكلة التالية: أين، وكيف ينبغي الشروع في التغيير؟ هل بالتربية؟ لكن ماركس كان قد انتقد بالضبط أطروحة فيورباخ بصدد أسبقية التربية: مَنْ سيُرَبّي المربين؟ لكن مَن سيشكل الحزب؟ هل بالاستحواذ على السلطة؟ لكن مَن سيستحوذ على السلطة؟ هل ينبغي الشروع في التغيير عن طريق البدء بامتلاك وسائل الإنتاج؟ هل بتصفية الطبقة المهيمنة؟ لكن هذا سينتهي إلى إرساء طبقة مهيمنة جديدة. هل ينبغي الشروع بتغيير العادات؟ لكن كيف نغيرها؟ هل بالتربية؟ ويعود التساؤل من جديد، لتعود الحلقة المفرغة. وبالفعل، فالمشاكل لا تنتظم بشكل خطّي وبالتتابع. إنها تطرح ذاتها بشكل جماعي ويحيل بعضها على البعض الآخر. إن الواقع الاجتماعي، كما رأينا ذلك وكما كررناه، متعدد الأبعاد وجدلية العوامل المختلفة تشكل حلقة من دون أن يستطيع عامل تحديد العوامل الأخرى أو مراقبتها. وهذا يفيد أنه من الواجب على كلمة «ثورة» أن تعنيَ في مبدئها ذاته تحولا متعدد الأبعاد، وتغييرا، حيث إن كل تحول محلّي أو قطاعي سيكون ضروريًا للتحول العام، الذي سيكون في الوقت نفسه ضروريًا للتحول المحلي والقطاعي.

فتحولات البنية الاجتماعية، والبنية الاقتصادية، والبنية الثقافية، والبنية الذهنية، بقدر ما هي منفصلة فيما بينهما ويستحيل اختزال بعضها في البعض الآخر، فإن ارتباطها لا يقبل الاختزال في إطار منظور ثورة الكل.

لا بد أن تكون هناك حلقات فاعلة وارتجاعية تتم بين التحولات الصغيرة (لدى الأفراد، بين الأفراد)، وما بعد التحولات (الأشكال الجديدة للنظام الاجتماعي)، والتحولات الهائلة (الكوكبية). وهذا يعني أن كل شيء لا يمكنه أن يأتي إلا في، ومن خلال تفاعل الأفعال الارتجاعية المشكِّلة لحلقات دائرية، وهي ظهور ضبابي تدريجي بالفعل، لكنه ظهور ضبابي يحمل في طياته صراعات ونضالات بقدر ما يحمل تآخٍ ومحبة. والنضال ذاته، يشكل جزءا من الولادة الاحتضارية. إن النضال يتم اليوم في كل مكان، في قلب كل إمبراطورية، وكل أمة، وطبقة، وجماعة، وفرد؛ يتم بين شكلين من أشكال التفكير، والسلوك، والفعل...

إن التقدم، يقول لابوري Laborit[1]، لن يأتيَ من الغرب ولا من الشرق، ولا من العالم الثالث، وإنما سيأتي من اللحظة التي يصبح فيها للإنسانية طابع كوكبي. يجب إضافة أن هذا الطابع الكوكبي الذي على الإنسانية أن تتميز به سيأتي من الغرب، ومن الشرق، ومن العالم الثالث. سيأتي من كل صوب ومن لا مكان. سيأتي من الجنس النسوي ومن الجنس الذكوري، من الصغار ومن الكبار، وسيأتي من الشيوخ، ومن العامل، ومن المثقف. **سيأتي من عدد لا متناه من الانحرافات التي تلتقي في تعاون شامل**. سيأتي من اقتران بين المغالاة

---

(1) هنري لابوري (Henri Laborit)، طبيب وجراح فرنسي اشتهر بكتابات فلسفية هامة ولد سنة 1914 وتوفي سنة 1995.

في اللاوعـــي في طلـــب الحاجات التلقائية والمغالاة في الوعي بضرورة وجـــود فكـــر جديـــد مُرَكَّب. ربما أنه سيأتي، لكنه لم يأت بعد: بل العكـــس، فكل حركة من الحركات إذا لم تجد الحلقة التي تصبح فيها عنـــصرًا من العناصر المكونة لها والتي ستندمج فيها، فإنها ستسقط من جديـــد، منعزلة، وهكذا سيتفرق المجموع على شكل أجزاء منفصلة، لينطوي كل واحد على نفسه، في إطار أنانية جديدة، وفي إطار تعصب ودغمائية غريبة وتجزيئية...

يفـــيد هذا جسامة المشكلة، أي التقدم الخارق، والتغير العجيب وهي أمور ستكون ضرورية للخروج من العصر الحديدي الكوكبـــي!

لم تعـــد الثورة تتوقف على فاعل أساسي (الحزب، أو العُمال)، وفعـــل أساســـي (الاستحواذ على السلطة) وبؤرة اجتماعية أساسية (وســـائل الإنتاج)؛ إنها تتطلب تعددية من التحولات/التغيرات/الثورات تكون في الوقت نفسه في استقلالية وفي تَعَالُق في كل المجالات (بما فيها مجال الفكر).

وانطلاقًـــا مـــن ذلك، من صائب القول إن مثل هذه الثورة تبدو ثـــورة مـــستحيلة منطقيًا وعمليًا. ولا وجود لجانب جيد يُكوِّن نقطة الانطـــلاق، بل يجب الشروع في العمل من كل الجوانب... إلا أن كل عملية خلق كبيرة، في مجال الحياة، تبدو لنا مستحيلة قبل أن تظهر، وفي بعض الأحيان تكون مستحيلة حتى بعد ظهورها. وهكذا يتم التساؤل دائمًـــا عن الكيفية التي ظهرت بها العين في الجسم الحيواني، ما دامت شـــروط تَكَـــوُّن العناصر المُكوِّنة للعين تفترض الوجود الشامل للعضو حيث يجد كل طرف وظيفته، وأن هذا الوجود الشامل يفترض الوجود المسبق للعناصر المؤسسة. ومع ذلك فقد ظهرت العين، ولم يحدث ذلك مرة واحدة، وإنما حدث ذلك على الأقل مرتين خلال التطور الحيواني.

وأيضًا، أيُّ ملاحِظ خارج الأرض كان بإمكانه، كما ذكرت ذلك في السابق، أن يتخيل قبل ثلاثة مليارات من القرون أنَّ التفاعلات الإعصارية الموجودة في تكتلات الجزيئات كان بإمكانها أن تنجح في تكوين كائن خلوي بإمكانات هائلة بالمقارنة مع إمكانات مكوناته، أي القدرة على التحول، وعلى التنظيم الذاتي، وعلى الترميم الذاتي، والإنجاب الذاتي... إن الحياة ثورة هائلة تحققت على كوكب الأرض. وفوق هذه الأرض وُلدَ أول كائن متعدد الخلايا، وهو ما شكّل ثورة أخرى. وتمكّن سمك من العيش خارج الماء من دون اختناق. واستطاعت حيوانات أرضية الطيران. وفجَّرَتِ النباتات أزهارًا. وولد **الإنسان العاقل/المجنون**[1] بدماغ يتكون من عشرة مليارات من العُصيبات، قادر على التفكير في ذاته والتغير عقليًا وثقافيًا واجتماعيًا. وقبل كل محطة من هذه المحطات، كانت الثورة أمرًا غير متوقع وغير متصور من طرف ملاحظ لديه ذكاؤنا وإمكانياتنا في الملاحظة.

وهذا يعني أن الأمر الذي لا يمكن تصوره هو أمر ممكن. حقيقة إن إمكانية «ولادة ثورة جديدة» للإنسانية تظل إمكانية جد محتملة، واحتمال ما زال يقع في جانب التقهقر والموت.

لكن، إذا كان التوقع يُظهرُ الأسوأ، فإن الأمل، من جانبه، يسير في اتجاه المستحيل والمجهول. وعملية الخلق كانت دائمًا، قبل ذلك، غير مرئية، وينبغي الرهان على هذا اللامرئي

(1) عبارة وردت باللغة اللاتينية Homo sapiens/démens:



ليل وضباب

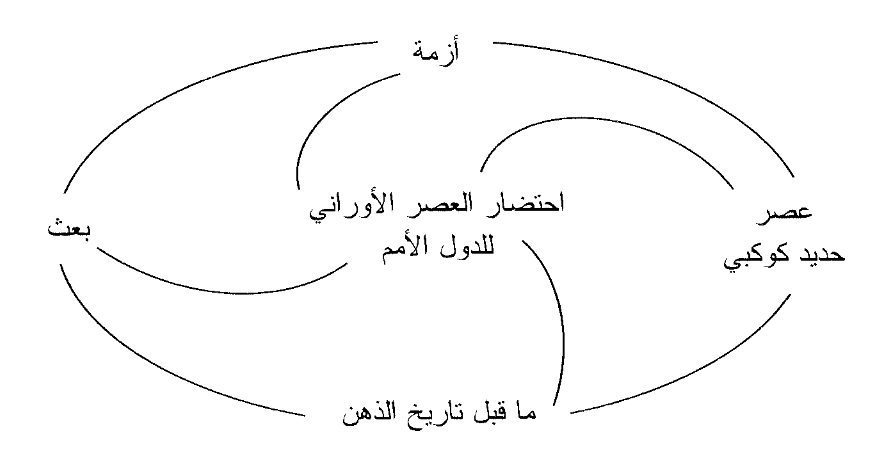
إننا لسنا قريبين من قمة الشاطئ حيث سنحيِّي الشمس المشرقة. ولسنا موجودين في اللحظة التي ستتحقق فيها وعود عصر الأنوار، كما تم اعتقاد ذلك سنة 1789، قبل أن ينطلق التاريخ من جديد في عواصف صحبة المقصلة، وانتفاضات، ونابليون، وعودة النظام الملكي، وتثوير الثورات...

إننا لن نخرج من التاريخ.

يجب علينا أن نعيد تموقعنا في ما قبل تاريخ الذهن الإنساني. إننا موجودون في لعبة غير مضمونة/وخاضعة لمبدأ الصدفة، للتقهقر/التقدم، موجودون في الآن الواحد في الثورات الوحشية والتقهقرات المتوحشة. إننا موجودون في الليل والضباب، في سُخْد من دون شكل، ورحم يكون الدم الموجود فيه والذي يغذينا مختلطاً بالقذارة.

ولا ندري ما إن كانت هذه المعاناة التي دخلنا فيها هي معاناة ولادة الإنسانية أو موتها.

وهكذا، بتهيئنا لهذه النهضة الجديدة، وببقائنا في عصر ما قبل تاريخ الذهن، فليس عصراً وسيطياً حقيقياً هو الذي نعيش فيه، وليست نهضة حقيقية هي التي في طور الإعداد، وليس ما قبل التاريخ هو ما نحن بصدد إنهائه. إننا موجودون في العصر الحديدي الكوكبي.



لكــنه عــصر حديدي يمارس مهنة الحِدَادَة. والإنسانية هي التي يــصنعها العــصر الحديدي الكوكبــي. والاختلاف بين هذا العصر والعصر الحديدي القديم، الذي تشكلت فيه الحضارة التقنية، هو أن هذا الأخــير لم يحمــل في ذاته تهديد فناء الإنسانية، اللهم في شكله الحالي حــيث **إن الــتقدم الــتقني يسمح في الآن الواحد بظهور الإنسانية الكوكبية، أي هذا العصر الحديدي الجديد، ويسمح باحتمال فنائها النهائي.**

وهذا يعني أنه ينبغي علينا أن نكون مستعدين للتشاؤم وللتفاؤل. فمــن جهة يمكن لنهاية الإنسانية أن تكون وشيكةً. ومن جهة أخرى، أصــبحت ولادة جديدة للإنسانية أمرًا ممكنًا. وخيبة الظن الجذرية تجاه الخــلاص التاريخــي لا ينبغــي عليها لهذا السبب أن تبدد فكرة تحول جــذري أصــبح ممكــنًا، فكرة نحن في حاجة إليها. لكن نهاية ما قبل تاريخنا، ونهاية تاريخنا، وقصصنا، ليست وشيكةً. لنتهيأ لكل شيء، إلا لمستقبل مشرق.

والعديد من الناس يعتقدون أننا فقدنا كل شيء بفقداننا لأوهامنا. لكــن العكــس هــو الذي حصل. لقد حققنا اكتسابًا هائلا بفقدان

أخطائنا، وهو اكتساب يتمثل في الحصول على الوعي الضروري وربما أنــــنا حصلنا، في إطار لعبة الحقيقة والخطأ، على الوعي المُخلص. لقد فقدنا الوعد بالتقدم، لكنه تقدم كبير أن نكتشف، في نهاية المطاف، أن الـــتقدم أسطورة. لقد تعلمنا أن عقلاً منغلقًا اغتصب مكان المعقولية. لكن نـــزع هذه المعقولية هو الذي يشكل غزوًا كبيرًا للمعقولية. لقد فقدنا المستقبل الذي تضمنه مؤسسة راند الأمريكية[1] وفقدنا المستقبل الذي تضمنه ماركة ماركس – لينين. لكن ها نحن قادرون على الفعل مـــن أجل المستقبل، بوعي كامل بالاحتمالات، وردود الفعل، والآثار المنحرفة والآثار المرتدة لكل فعل.

إنـــنا موجودون في كوكب في حياة، كوكب يتمايل، ويحيا من دون أفـــق. ربمـــا أنني قلت إن كل شيء قد حصل، إلا أننا لن نعرف ذلـــك إلا بعد مرور زمن طويل: لكن ربما أن كل شيء ما زال يحصل ويحصل من جديد، هنا وهناك في العالم آلاف الانحرافات، والترددات، وفي كل مرة يتعلق القرار بالشجاعة أو النذالة، بالوعي أو الضياع. ربما أنـــنا سنكون شهود الحدث المجهول أو فاعلين له، حدث سيكون وراء تدفق الانحراف الكبير، الذي ستبلغ آثاره نهاية الأزمنة الإنسانية

---

(1) مؤســـسة أمـــريكية تأســست سنة 1945 في كليفورنيا هدفها تحسين العطاء السياسي في الولايات الأمريكية.

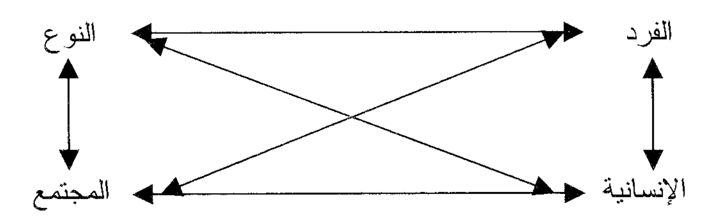


سفاد الحيتان

إيقاظ/تنبيه الإنسانية

كـــل شـــخص يـــشعر، في مكانـــه وآنيته، أنه شديد البعد عن الإنسانية، وهي فكرة مجردة تنحل في موضع آخر وفي المستقبل.

لكن، الواقع، أن نسيج الإنسانية يتكون، لا انطلاقًا من الظهور الـــضبابـــي والتدريجـــي الكوكبـــــي الذي هو في طور المخاض فحسب، بل سيتكون أيضًا انطلاقًا من الأفراد، عندما يعتبر كلُّ فرد أنَّ كـــلِّ غـــيرٍ يدخل في حقل تواصله هو بمثابة **قريب**، أي عندما يعتبره **أنا – غيرية**، ويعتبره بالقوة **غيرًا**. ويتم تكوين نسيج الإنسانية انطلاقًا من الغير وانطلاقًا من بعد الأنا. لكن الإنسانية ليست عبارة عـــن **أنا أعلى**، أي أنها ليست كيانًا يعلو على الفرد. ولا يمكنها أن تكون المعبود الأخير، والدين الأخير. إن الإنسانية هي الغاية الجديدة الـــتي تحقق وتبلور الطبيعة الخاصة **بالإنسان** وقد أصبح انطلاقًا من الآن يشكل الرباعية التالية:



إنـــنا نرى إذن بوضوح الطابع المُركّب والمتعدد المؤسس للإتيقا[1] الأخـــيرة والمتمـــثل في العمل **لفسح المجال أمام ظهور الإنسانية**. إنها تتضمن كذلك، وبالضرورة، إيقاظ الشعور بالإنسانية في كل فرد.

---

(1) الإتقيا: أخلاقيات.

أوقفوا الموت الكبير

إن تنبيه الإنسانية اليوم يختلط مع ضرورة إيقاظ الإنسانية، أي إحداث (قفزة للإنسانية) قادرة على إيقاف المسيرة إلى الموت. فإن إيقاف الموت! لا يعني فقط المساهمة في النضال المستمر والمتعدد الأشكال الذي يجب أن تقوم به كل حياة ضد الموت. إنما يعني النضال ضد الموت الجديد، النضال ضد الموت الكثيف الذي يحصد الملايين أو **الموت الكبير**.

فخلال هذا القرن ظهر الموت - الكبير. قتلت الحربان العالميتان الملايين من البشر. والمعسكرات الستالينية والنازية قتلت الملايين. لكن عملية قتل هؤلاء الموتى تمت على امتداد الزمان والمكان: كان يجب وجود آلاف القتلة لآلاف المقتولين، وملايين القتلة لملايين المقتولين، أما هيروشيما وناكازاكي فقد أنتجتا الموت الكبير في بُعْدِهِ المُرَكّز والمُعْدِم.

لقد كان توازن الرعب بين القوى العظمى إلى حدود اليوم يمنع التهديد ويوقفه. إلا أن دوامة أخذت تتزايد، ليس فقط لأن هناك تصعيدًا آخذًا في التنامي الكيفي والكمي للأسلحة ولكن أيضًا لأن هناك انتشار السلاح بين القوتين العظيمتين، وبالتالي تنامي القوى المتوسطة أولا، ثم الصغيرة التي تدخل في هذه الحلقة/الدوامة. وستنتشر الدوامة أخيرًا في مجموع الأمم، بحيث ستغيِّر دوامة العدم هذه طبيعة الحرب ذاتها بخلق علاقة جديدة بين الأعداء.

لقـــد كانـــت الحرب تعني إلى حدود اليوم بقاء المنتصر وامتيازه. والآن أصبحت تعني إمكانية العدم المتبادل. إن العلاقة الذُّهانيّة، الخاصة بالدول والتي تفيد (أن حياتك هي موتي، وحياتي هي موتك) (Fornari) قد عوضتها العلاقة المؤثرة التي تبرز أن العدم فتح باب التضامن الحيوي بـــين الدول/الأمم والقائلة: (إن موتي هو موتك، وحياتي هي حياتك). كما أن الحرب التي لم تتوقف عن إتلاف الأزمنة التاريخية، أصبحت في أزمـــة. والخـــلاص الوحـــيد للأزمـــة هـــو أن يـــصير العدو **أنا – الآخر**/والآخر – الأنا. فالعدم إذن هو الذي يحمل فرصة الحياة: والعدم هـــو ما بعد القوة التي هي وحدها القادرة على مراقبة الدولة الذهانية وإيقـــاف سلطاتها المطلقة، **أي إيقاظ ظهور الإنسانية التي تعلو على الأمم**.

العنف المجنون

هنا لا يطرح مشكلة العنف فحسب، وإنما مشكلة **العنف وقد أصبح مجنونًا**[1]

ومشكلة العنف «المجنون» مشكلة غير منفصلة عن طبيعة الإنسان **العاقل/المجنون**[2]، لكنه عنف ينتشر فعليًا في العصر التاريخي، الذي هو عصر الدول والحروب، بمذابح هائلة، وإساءات أليمة، وطرق تعذيب غير معقولة تتجاوز وتفوق كل بعد استراتيجي. وتكاثر التعصب الديني، والاعتقادات التبشيرية، والرؤى القيامية التي زادت وضاعفت من تدفق العنف المجنون. وعوض أن يقوم القرن العشرون بتقليص ذلك، عمل على تدشين عصر جديد من العنف المجنون في الوقت الذي دشن فيه عصر الموت الهائل.

---

(1) هامش لإدغار موران: لا أريد أن أعالج مشكلة العنف، وهو مشكلة إحيائي – أنثربولوجي – سوسيولوجي مركب نميل ببلادة إلى اختزاله أو إلى إلباسه بعدًا واحدًا. إنني أريد فقط الإشارة هنا إلى أن العنف مفهوم واضح وضوحًا كاذبًا، ولا يمكن حصره في الممارسة الفيزيائية للعنف. فالتخويف والتهديد يحملان في ذاتيهما عنفًا كمونيًا هائلا يعفي من الممارسة الفيزيائية للعنف. فالإكراه والقهر يمارسان العنف. وعندئذ، فعنف التمرد يمكنه أن يصبح هو الوسيلة الوحيدة لكسر وتيرة التخويف وإيقاف القهر. ولا تصلح هذه القضية بطبيعة الحال للعنف المكرر، والمفسد، العنف الذي يمارس من أجل أسباب بليدة، وعلى سلطاتات بليدة.

(2) باللاتينية في الأصل.

إن جـــنون الموت الهائل الذي نجم عن الحرب العالمية الأولى كان مـــستنبت بكتيريا ترعرعت فيه قيامة العنف التبشيرية للعنف الثوري. وكـــيف لا يهتـــز إيمانـــنا عند ذلك، في الوقت الذي تعلن فيه روزا لوكسومبورغ العظيمة عن الدمار الدموي للعالم القديم، الذي سينقرض عنفه بالعنف الضروري لميلاد العالم الجديد الذي سينعم أخيرًا بالسلم.

لكن عنف الخلاص هذا تشوّه عندما أصبح عنف الدولة، بتأييده وتبريـــره هـــذا العنف الهائل الجديد الذي تقوم به الدولة التي أصبحت شمولية تبريرًا أيديولوجيًا وصوفيًا ودينيًا. ذلك ما أدَّى إلى الحرب العالمية الأولى، وهي أكثر الحروب التي عرفها التاريخ ديمومة وشدة في الإنتاج الاعـــتقالي للمـــوت الهائل. في حين خلق الدين النازي للعرق اللبؤي وللدولة المفترسة نسقه الذاتي الاعتقالي وأضرم نار الحرب العالمية الثانية.

واليوم نرزح تحت وطأة دوامة العنف وقد أصبح جنونيًا. وتترتب هـــذه الـــوطأة علـــى اقتران عنف المقاومة/التحرر الذي يعارض القهر (الاحتلال العسكري، الهيمنة الاستعمارية) وتبشيرية الخلاص الثوري، الذي يعتبر أن كل الوسائل مشروعة بفضل الغاية التحررية. ولا تنتشر دوامـــة العنف هذه في المجتمعات الشمولية (التي تقمعها في المهد)، وفي الدكـــتاتوريات والهيمـــنات الاســـتعمارية فحسب، وإنما كذلك في المجتمعات ذات النظام السياسي التعددي. وتأخذ هذه الدوامة شكلين. الـــشكل الأول، وهـــو الشكل المبتذل، والمخفف و(الحميد) إن جاز القـــول، يكمن في انقلاب نباح الاحتجاج إلى اعتداء بتفجير قنبلة من دون هـــدف واضح، وفي بعض الأحيان بهدف لا علاقة له بتاتًا بسبب الاحـــتجاج (وهكذا قامت لجنة أرمينية بشكلٍ غريب بالاحتجاج ضد أفعـــال عنـــصرية ارتكبها بعض المتسكعين ضد بعض الأرمن في مدينة ألفورفيل بوضع قنبلة أمام مكتب خطوط الطيران الفرنسي الموجود في

شارع الإليزيه). والشكل الثاني، المركز، والحاد، هو الشكل التبشيري القيامـــي المسمَّى بالإرهابـــي، حيث إن أصغر أقلية حاملة لحقيقة الـــتاريخ تمـــنح ذاتها مهمة إيقاظ الطبقات العمالية وإزاحة قناع الديمقراطيات التي تبدو ليبرالية كي تظهر أثناء ممارسة القمع وجهها الفاشي الحقيقي.

ولا تعمـــل هـــذه الدوامـــة إلا على إذكاء حلقة من الأجوبة، والأجوبة المضادة، والأجوبة المضادة للمضادة، حيث يُذْكِي كل عنف العـــنف الآخـــر، أي يُذْكي العنف الإرهابـــي عنف الدولة والعكس، ويـــسير هـــذا العنف ذاته نحو القتل - الهائل باعتداءات على الجموع وقـــريبًا ســـتقود ســـهولةُ صنع السلاح النووي المصغر العنفَ الجنوني الإرهابـــي إلى الموت الهائل.

وهكـــذا ســـتلتقي دوامات العنف العاصف داخل الدول بدوامة العـــنف الحاصل بين - الدول والحاملة للموت الهائل والصاعق، الذي يحوم حول الإنسانية، وهو في الحقيقة سُخد العدم.



ما بعد العنف

هــل من إمكانية لوقف الدوامة؟ إننا نعرف أن العواطف النبيلة والأفكار الجيدة عاجزة. لكن انطلاقًا من الآن يدخل في ساحة الصراع عـاملان تـولدا عـن العنف وعن الموت الكبير، لكنهما سينقلبان عليهما:

- ما بعد القوة التي يمارس مهمة مراقبة الموت.
- تجربة العنف وقد أصبح جنونيًا.

إن تجربة العنف وقد أصبح جنونيًا هي تجربة كل شخص وتجربة الجميع. ففي العواصم الأكثر مدنية يقوم المدمن على المخدرات خلال فترات النقص الحاد بإسقاط امرأة عجوز وتعنيفها قصد سرقة محفظتها. ومـن الآن أصـبح الأطفال في كل الأصقاع ينفجرون ويموتون تحت قنابل سوداء أو حمراء.

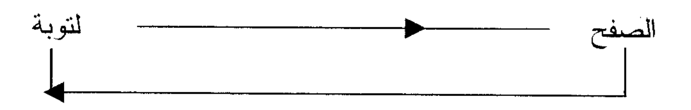
والخـلاص لا يمكنه أن يأتي لا من العنف ذاته ولا من اللاعنف، أي مـن عالم منغلق، ومنكمش لأشخاص من دون عزيمة، وفي كلل، وضـجر، ولامبالاة، وقابعين أمام التلفزة لتأمل مذابح بيافرا، والفيتنام، وبـوروندي، والكمبودج، وأفغانستان، وتيمور. ولا يعني هذا فقط أن مـا تحت العنف هو عبارة عن حياة دونية. ذلك أن اللاعنف هو الأمر الـذي يسمح للعنف بالانتعاش والهيجان. ومن وقع تحت رعب العنف يستسلم دائمًا تحته. ولن يتحقق أي شيء أولا مع عديمي العزيمة، كما أدرك ذلـك الإنجيل القديم. إن النضال ضد العنف وقد أصبح جنونيًا

سيقوم به أولا أولئك الذين مارسوا العنف الحربي إلى حد التقزز، ومارسوا العنف الثوري إلى حد العبث، والعنف الإرهابي إلى حد الاشمئزاز. ذلك هو الدرس البديهي الذي يقدمه شريطان سينمائيان أمريكيان بيّنا لنا كيف يمكن للسفر المقزز والرهيب إلى أقصى حرب الفيتنام أن ينتهي إلى الثورة على الذات. فالشريط السينمائي **القيامة** الآن لا يستطيع بالتأكيد الخروج من القيامة (ولم يجد كوبولا، مخرج الشريط، النهاية الحقيقية لشريطه السينمائي ببلورته لنهايات غير مرضية له ولنا). لكن فيلم قناص الأيائل[1] ينتهي إلى الوعي بالجنون القاتل وإلى رفض المشاركة من الآن في لعبة الموت: وأخيرًا يغمر رعب الاغتيال، لدى القناص بطل الفيلم، متعة القتل. إن مثال كلاين H J. Kelin عضو مجموعة بادر Baader ليس بخيالي بل واقعي، فهو المشارك في الهجوم الذي استهدف اجتماع أوبك في فيينا، والذي كتب، في ختام رحلته إلى آخر الليل: «البرميل عندي فارغ: ولن نسكب فيه أبدًا قطرة دم» (*La mort mercenaire*, p. 44). وعندما يلقي ميكاييل بومان بمسدسه سنة 1974 يقول لنا: «ألقيت السلاح لأنني أدركت أن الكراهية ليست هي الدافع العميق لأفعالي، وإنما الحب» (وندرك في الوقت ذاته أنه إذا كان بإمكان الحب المكبوت والعاجز، والمغمور والمُداس أن يتحول إلى كراهية، فبإمكان هذه الكراهية ذاتها أن تنقلب حبًّا.)

وينبغي فهم أولئك الذين مارسوا العنف سابقًا والاعتراف بهم، لا فقط من خلال دورهم الذي لا يُعوَّض ضد العنف وقد أصبح مجنونًا، وإنما بمثابة إخوة دوستويفسكي الذي أدرك قبل ماركس بملايين السنين

(1) The Deer Hunter شريط سينمائي أمريكي من إخراج Michael Cimino، 1978.

الضوئية ووضح بسرده قصة راسكولنيكوف وسونيا كيف تتأسس حلقة جديدة من الإنسانية.



ولا يمكن للصفح أن يأتي إلا من أولئك الذين مزّقوا، وأُهينوا وتلقوا أضرارًا، ومن أولئك الذين تحول بعض أقربائهم ضحايا... وهنا كذلك يوجد شيء جذري ينبغي تجاوزه: التأثر والكراهية. وتوبة من مارسوا العنف سابقًا لا تكفي. ولا يمكن للدوامة الجديدة المنتجة للإنسانية أن تتأسس إلا عندما تُدمج في طرفيْها المسالمين السابقين الذين يستندون إلى عنف الدولة وتدمج أيضًا أولئك الذين مارسوا العنف سابقًا، وناضلوا بعنف جنوني ضد عنف الدولة. هذه الدوامة هي التي بإمكانها أن تخلق **هذا الصنف الجديد من دعاة السلام.**

وانتفاضة الإنسانية، إذا حدثت، فإنها تمر بالضرورة عبر الوعي الفردي وانتشارها بذبذبة جماعية. وعندئذ يمكن أن تولد شروط سياسة ما بعد العنف التي بمعرفتها كيف تُقلّص من دور العنف السياسي وتحد منه، ستعرف كيف ستُحارب قوى القمع والموت. أقول ما بعد – العنف كي أقول إن الخلاص سيأتي، إذا أتى، لا من إلغاء العنف، وإنما من تخفيض العنف الجنوني. ينبغي علينا إقصاء كل خلاص، سواء أتى من تبشيرية العنف، أو تبشيرية اللاعنف. وما بعد العنف ليس خلاصًا، إنه السبيل المتناقض والمعقد والصعب الذي يدعونا إلى الانفلات من قبضة الموت الجنوني.

وهنا يتدخل بترابط مع ذلك العامل الثاني: أي حضور العدم. إنه خيار انتفاضة الإنسانية والفناء المُعمّم الذي يجب عليه أن يوقظنا.

فالوعـــي بالفـــناء المتبادل هو الذي يمكنه أن يؤسس ما بعد - مراقبة الوحوش المصابة بالذهان الهذياني. وعن صواب يقول كزافييه سالانتان (Xavier Sallantin) إن التهديد الذري يؤسس خميرة تشكل وعي عالمي... إنه أصبح أفضل من ذلك، أي أصبح خميرة تشكل الإنسانية.

إنـــنا نـــرى إذن مـــن خلال **الطرفين** ظهور الحالة الاستعجالية والضرورة الأولية المتمثلة في **بزوغ الإنسانية**.

المقاومة والتغير

يجب علينا مقاومة العدم ومقاومة قوى التقهقر والموت الهائلة. وفي كل الفرضيات، يجب المقاومة. فالحد من الموت مقاومة. النضال ضد الوحشية مقاومة. والمستقبل لم يعد ذلك التقدم اللامع إلى الأمام، أو بالأحرى ينبغي القول إن هذا التقدم اللامع لتهديدات العبودية والخراب يجب أن تقاوم أيضًا. وبشكل أكثر اتساعًا، يجب علينا من اليوم، ومن دون توقف مقاومة الكذب، والخطأ، والخلاص، والاستسلام، والأيديولوجيا، ومقاومة التكنوقراطية، والبيروقراطية، ومقاومة الهيمنة والاستغلال والقساوة. وأكثر من ذلك يجب علينا أن نهيئ أنفسنا إلى أشياء جديدة من القمع، أي إلى أنماط جديدة من المقاومة.

وفي الوقت نفسه، يجب علينا أن نعلم أننا لن نستطيع تجاوز التهديد القاتل إلا بفضل تحولات كبيرة ومتعددة بإمكانها تثوير شروط المشكلة «إذا أراد الإنسان أن يعيش، فعليه أن يتغير»، كما قال ياسبيرز. وكلما تقدم الموت، تقدم مشكلة التغيير الضروري لإنقاذ الحياة. وهنا تظهر من جديد فكرة الثورة، أي فكرة تحول جذري ستؤثر في الآن الواحد في الفرد، والعلاقات بينفردية، والنظام الاجتماعي للأمم - الدول، والذي سيعمل على بزوغ الإنسانية من حيث هي إنسانية. لكن يجب على الفكرة الجديدة للثورة أن تُطَهَّر من كل خلاص، ما عدا من فكرة إنقاذ المغامرة الإنسانية. فهي ضرورية

منطقـــيًا لإنقاذ الحياة، لكنها ليست تاريخيًا ضرورية، بل إنها تبدو قليلة الاحتمال. وهي لن تنجز التطور الإنساني، لكنها ستعطي انطلاقة تطور جديد. إنها ستعمل على تغيير مبادئ التغيير. إن فكرة الثورة هذه تحمل في ذاتهـــا فكـــرة الاســـتمرارية الجذرية، لأن الحياة، وخصوصًا الحياة الإنـــسانية، هي التي يجب ضمان استمراريتها، ولأن الحضارة هي التي يجـــب إنقاذها من الوحشية القديمة والجديدة، حتى وإن كانت إلى حد الآن غـــير مـــنفكة عن الوحشية. وهي في الوقت نفسه تحمل في ذاتها فكرة التغير الجذري.

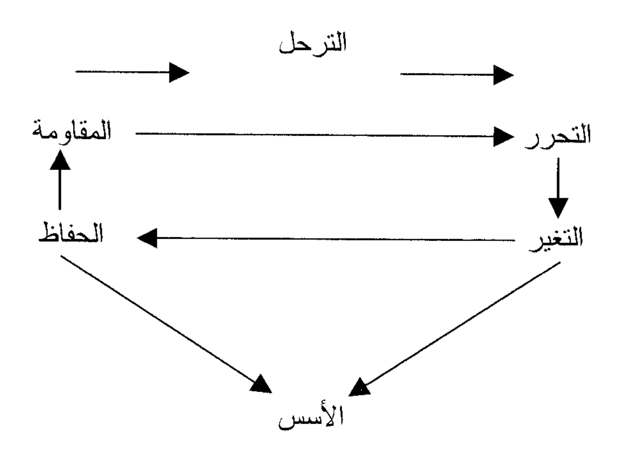
هناك إذن، انطلاقًا من الآن، علاقة تكامل وتضاد في الآن الواحد بين فكرتي المغامرة والثورة. إن التخلص من أسطورة الثورة – الخلاص يقودنا إلى فكرة المقاومة، لكن هذه تقودنا إلى الفكرة الجديدة للثورة. إن الـــثورة تمر عبر مقاومة الموت، مقاومة تحتاج إلى الثورة. وعلى كل حال، **فالمستقبل يمر عبر المقاومة**.

بإمكانـــنا ربط أفكار المقاومة والثورة في داخل فكرة **الأسس**. وأولئك الذين قرأوا الثلاثية الرائعة لإسحاق أزيموف سيفهمون المعنى الكامل الذي يجب إعطاؤه لكلمة أسس في هذه الأزمنة المتقلبة حيث إن كـــنوز العالم القديم مهددة بالفناء أثناء سقوطه وحيث إن بذور العالم الجديد تكون مهددة بالفناء بسبب الجمود. إن فكرة الأسس تعني:

- تأســـيس بـــؤر المقاومـــة بكل ثقافة ستكون في الوقت نفسه بؤر انطلاقـــة ثقافة جديدة (وليس من المستحيل أن يتكرر لمدة طويلة حدث إغلاق مدرسة أثينا)؛
- تأســـيس نـــسيج جنـــيني من العلاقات الاجتماعية الجديدة ومن علاقات حياة مغايرة؛

- تأســـيس تجمعات البحث حيث يتم بذل مجهود كبير قصد بلورة مـــبادئ فكـــر غير مبتور/وغير باتر من أجل فهم عالمنا، وزماننا، وذواتـــنا (ومـــن جهـــتي سأساهم انطلاقًا من الآن من أجل هذه الأسس بعملي، ومن ضمنه هذا الكتاب).

إن فكـــرة الأســـس هي فكرة مفتاح من أجل نهاية قرننا وفجر الألفية الثالثة. إنها تنطوي في داخلها في الآن الواحد على إرادة حماية ما ينبغي إنفاذه داخل هذا التقهقر الشامل المهدد، وإرادة إثبات الأمر الذي يُمكِّـــنُ أخـــيرًا من التقدم الحاسم داخل صيرورة الإنسانية. إن فكرة الأســـس هي الفكرة التي تسمح بالحفاظ لا على الماضي فحسب، وإنما بالخصوص على المستقبل.



كل فرد أينما حل... إلا وهو منخرط في النضال بكامله

يقـــول الجنـــرال لجنوده: «ليتصرف كل واحد منكم كما لو أن الحرب بكاملها تتوقف عليه». ويقول لنا التفكير المركَّب: كل فرد يجد نفـــسه مقحمًا في خضم النضال بكامله ضمن حركة ما لا متناهية من ردود الفعل الارتجاعية المتبادلة.

إنـــنا نعلـــم أن كـــل مقاومة تتطلب استقلالية كل فرد وتحمل المسؤولية الشخصية. ونحن نعلم أن كل أزمة تتطلب خصالا فردية من الـــذكاء والابـــتكار، هذا فضلا عن أنها تجذب الأوهام، والمخدرات الأيديولوجية، و«أكباش الفداء». لقد رأينا أن الثورة الحقيقية لا يمكنها إلا أن تكـــون متعددة الأبعاد وتتطلب تحولات عديدة متزامنة. وثورة الألفية الثالثة ليست لها صيغة ولا وَصْفَة. فكل شيء يمكنه أن يبدأ من أي نقطة، وكل شيء يجب أن يبدأ في كل مكان، من أطراف عديدة، ويجـــب على بدايات عديدة أن تحدث جميعًا، وأن تتزامن، وأن تتآزر، وأن تُحدث دوامة...

وعـــندئذ، فهناك حيث يكون السيناريو غير جاهز[1]، وحيث إن الـــصدفة والـــشك يخيمان على البدايات والتبلورات، هناك حيث إن المبادرة والذكاء يصبحان من جديد فاعلين، فيجب من جديد على كل فـــرد حيث ما كان، في موقعه الخاص، أن يشعر بأن الأمر يعنيه. فعلى كل فرد أن يبدأ بالشروع في البداية حتى وإن كان ذلك مع ذاته. وكما قـــال ذلك ليكي (G. Leakey(*Strategy for a living révolution*:

«إنـــنا كائنات النظام القديم التي تريد مع ذلك المساعدة في بناء النظام الجديد: يجب على أحد برامجنا أن يكون هو ذواتنا.»

كل فرد، من دون وعي، يفعل في الصيرورة وينفعل بها. واختفاء المـــنقذ التاريخي يعيد للجميع ولكل شخص، ولكل «إرادة طيبة» دوره ورسالته. وكل فرد يجد نفسه انطلاقًا من الآن منذورًا لا لتفويض إيمانه لحزب حامل للحقيقة التاريخية، وإنما للوصول إلى الوعي الشمولي والعام للإنسانية. وهنا نجد من جديد على شكل حلقة المشاكل الأساسية التي يعالجها هذا الكتاب: كيف نتقن النظر، والتفكير، وكيف نتقن التفكير

---

(1) باللغة الإنجليزية في الأصل.

في تفكيرنـــا، وكيف نتقن الفعل، وينبغي إنجاز هذا لا من أجل ذواتنا فحـــسب، وإنما من أجل المهمة الأكثر عظمة التي لم يصادفها الإنسان أبـــدًا: النـــضال المتـــزامن ضد موت النوع الإنساني ومن أجل ولادة الإنسانية.



الترحل

إننا موجودون في الصيرورة، والصيرورة تتضمن الماضي، والحاضر والمستقبل. ولنذَكِّر لآخر مرة أن كل فرد يعيش العديد من الحيوَات، حياته الخاصة، وحياة أقربائه، وحياة مجتمع، وحياة الإنسانية، وحياة الحياة. كل فرد يعيش كي يحافظ على حياة الماضي، وكي يحيا الحاضر وكي يمنح الحياة للمستقبل. هناك علاقة متقلبة وصدامية بين الحاضر والمستقبل لا في كل فرد على حدة، ولا لكل فرد فحسب، وإنما أيضًا للآخرين وللمجتمع. إننا نكرس حياتَنا من أجل الحاضرِ والمستقبل، لكن حصة هذا وذاك لا يمكننا أن نجعلها بمثابة ميزانية نقسمها إلى حصتين: حصة الاستهلاك وحصة الاستثمار. وكل فرد يجد نفسه أمام هذا المشكلة لكن التضحية بالحاضر من أجل مستقبل بهيج يهيئ في الواقع مستقبلا فظيعًا. ينبغي أن يكون هناك فرح ومحبة في الحاضر للاستثمار في المستقبل. ينبغي أن نعرف كيف نتمتع بالحاضر من أجل محبة المستقبل. ويجب أن نعلم أن المستقبل ذاته جزء من الصيرورة، وأنه، هو كذلك، سينقضي...

والحياة السياسية مثلها مثل الحياة الغرامية تتخذ معنى في اللحظات السامية للتشارك وللانصهار، وللفرح هنا والآن[1]. وكتاب ألبروني Alberoni يوضح لنا هذا التطابق العميق بين النَّشْوة الجُموعِية والنَّشْوة

(1) بالاتينية في الأصل: Hinc et nunc

الغرامية (Enamoramento e Amore, trad.fr: Le Choc amoureux,
.(éd. Ramsay, 1981

إنـــني أعلـــم أن التحررات سريعة الزوال، وهناك حيث تتكسر القـــيود، تتكون قيود جديدة، واستعبادات جديدة تتهيأ، وهناك حيث يكون التحرر غير قادر على توليد الحرية، يحفر طريق قمع جديد. أعلم أن القمع الجديد يأتي مُحمَّلا بورود وأعلام، تستقبله دموع أمل أولئك الـــذين علـــى يقين من خروجهم من التعاسة، وعند ذلك تبدأ تعاسة جديـــدة ومُرْعبة. وأعلم أن لا شيء قد حُسِمَ، وأن لا شيء قد حُسِمَ إلى الأبـــد، ونهائيًا، ماعدا الموت. ينبغي علينا أن نسير في الفرح والألم، في الانتظار لا في انتظار الوعد، وإنما انتظار الأمر غير المتوقع... أتحدث هـــنا عـــن تجربتي. لقد عشت اللحظات الحالكة في القرن العشرين في اللحظـــة ذاتهـــا التي أعلنها فكتور سيرج[1]: الحلف الألماني السوفياتي، اكتساح فرنسا، انهيار أوربا، هجوم ألمانيا على روسيا إلى حدود مدينة موســـكو، كل ذلك يبشر إلى الأبد بنهاية كل أمل. ومع ذلك تولد، انطلاقًا من سنة 1941، الأمل من جديد...

وبعـــد ذلـــك، انطلاقًا من سنة 1947، مع العصر الجليدي الثاني للستالينية ومع الحرب الباردة، اعتقدت أن القرن العشرين توغل في نفـــقٍ لـــن يخرج منه خلال حياتي. لكن سنة 1953 ستشهد موت الخلود.

عشت سنة 1957 قمع «الثورة الهنغارية» وإبادة حركة «أكتوبر البولونـــية». وبعد سنة 1960 خضعت لعودة الأوهام التي اعتقدت أنها بادت إلى الأبد، لكنها أوهام متعلقة هذه المرة بكوبا وبالصين؛ وعشت فـــوز الظلامـــية التي تغنّى بها المثقفون الذين أنتمي إليهم، فوز الفكر

---

(1) سيرج فكتور ولد سنة 1890 وتوفي سنة 1947. يعد من المفكرين الثوار.

الأكثـــر ممارســـة للبتر الذي وصل إلى أقربائي الذين لم تمنعهم سوى الصداقة من التخلي عنِّي، و لم تمنعني سوى الصداقة من إبعادهم.

لكـــن المقاومة التي عشتها سنة 1642 و1943 و1944 لم تكن، كمـــا قلـــت ذلك سلفاً، مجرد سنوات مجدّها أمل تحرير/خلاص. إنها تتـــضمن، مـــن خلال الاعتقالات والتعذيب، واعتقال ونفي أصدقاء أعـــزاء، أخطـــار قاتلة بالنسبة لأقربائي، ولحظات خارقة من التآخي والسعادة. عشت تحرير باريس، في خضم المتاريس، وصخب الأجراس، والحـــرائق، والـــشهب الـــنارية. عشت بالوكالة، «الثورة الهنغارية»، وعـــشت وأنـــا في مكاني لحظة مؤثرة رفقة أصدقائي أحداث «أكتوبر الـــبولوني»، وعشت في باريس مايو الباريسي، وعشت بالوكالة «ربيع براغ». وذهبت لأتذوق سعادة أبريل لشبونة!...

لنستعد لكل شيء.

لنـــستعد للعدم. لنستعد لكرة النار. لنستعد للدخول تحت حماية الأمـــبراطورية، مع السيد هوساك Husak[1] الفرنسي. لنستعد للهزيمة المحتومة. ورغم أننا نتمنَّى بحرارة أن تتوقف الإهانة والكراهية والكذب، فإنـــنا لم نعـــد في حاجة إلى يقين الانتصار من أجل مواصلة النضال. والحقائـــق المتـــشددة ليست في حاجة إلى النصر، وهي تقاوم من أجل المقاومة.

لكـــن لنـــستعد أيضًا للتحرر، حتى وإن كان عابرًا، للمفاجئات الإلهية، لنشوة أخبار التاريخ...

---

(1) غوســـتاف هوساك ولد سنة 1913 وتوفي سنة 1991 رجل سياسي سلوفيني وعضو الحزب الشيوعي التشيكي.

البذر. التّحاب

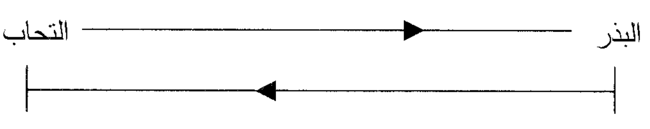
لنـــتجه إلى الألفـــية الثانـــية. إننا نعيش التيهان، ولن نخرج من الترحال. والزهد في الجنة ما زال في البداية. وتاريخ الإنسانية ما زال في بدايـــة الطـــريق. وقبول التراجيديا الإنسانية (وهي بالتأكيد تراجيديا الكون) هو الشرط الضروري لكل سياسة تهتم بالإنسان.

هل يجب القيام بعمل ما؟ لقد قلت سابقًا أن مبدأ اللايقين يدخل في كـــل فعـــل، وبالخصوص في كل فعل سياسي. قلت اللايقين الهائل للفعـــل بالنـــسبة للإنسانية. وهذه الأخيرة معرضة، فوق ذلك، في كل لحظـــة **للجـــنون**. لـــن نقصي اللايقين والصدفة، سنتعلم كيف نعمل ونتـــصرف بهمـــا. ولن نصبح فجأة (حكماء)، إننا سنتعلم التعامل مع جنوننا من أجل الحفاظ على أشكاله الشنيعة والقاتلة.

هـــل ينبغـــي أن نراهن؟ إننا لا ندري ما إذا كان كل شيء قد انتهـــى، أو أن لا شيء قد تم. لا وجود ليقين، وبالخصوص لا وجود لـــيقين بالنـــسبة للأفـــضل، لكن أيضًا بالنسبة للأسوأ. وفي الليل وفي الضباب يجب علينا أن **نراهن**.

يجب علينا أخيرًا صياغة المبدأ المنوي للفعل السياسي. ليس للفعل الـــسياسي فعالـــية الفعل الفيزيائي، حيث إن كل ضربة مطرقة جيدة التسديد تدخل المسمار قليلا في الجدار. وليس المجال السياسي هو المجال الوحيد الذي يهدم فيه الجدار عندما نعتقد أننا ندخِل المسمار. ذلك أن الفعالـــية السياسية، مثلها مثل الفعالية البيولوجية للجنسانية، تحتاج إلى

العديد من الجهد غير المنتج، وإلى تبذير هائل للطاقة وللمواد الحيوية للوصول أخيرًا إلى إنجاح عملية الإخصاب. وملايير من غبار الطلع، واللقاحات تتطاير من النباتات ويكون الموت مصير أغلبها قبل أن تولد. تَخَيّلَ ميشليه (Michelet) أن الحيتان يتوجب عليها، إن أرادت أن تتسافد، أن تنطلق نحو الفضاء بشكل عمودي وأن تنقذف الواحدة نحو الأخرى، بحيث أن العضو الجنسي الذكري يلج، في لمحة وبضربة حظ، العضو الجنسي للأنثى ويقذف في داخله منيه. كم من الجهد غير المنتج والمتكرر كانت تحتاجه حيتان ميشليه من أجل التوالد. والفعل السياسي على صورة هذه الأسطورة. إنه يتطلب حماسًا، ومحاولات/وأخطاء من دون انقطاع، إلى أن تتم في يوم ما، وبضربة حظ، عملية الإخصاب. وفي كل قذف منوي نقوم به، تنطلق مائة وثمانون مليون حيوان منوي بشكل جنوني، وربما أن حيوانًا منويًا واحدًا يستطيع، وسط مذبحة معممة، الوصول إلى الهدف المنشود، هذا إن كانت بُويْضة الأنثى مهيأة لاستقباله. إن بذر الحياة، بالنسبة لنا، يعني بذل الجهد من دون حساب، وإنتاج بذور من دون حساب، لكن عملية البذر يمكنها أن تتقاطع مع التّحاب، أي مع الحب الذي يُغيّر شكل كائنين ويجد غايته في نشوة اتحادهما. وها هو الرمز الذي تمكن كل فرد أن يحياه، أو يمكنه أن يحياه، وهو رمز يميز هذا التطابق المركب بين التزاوج الحاصل بين كائنيين والإنجاز الأعمى لوظيفة آتية من أعماق العصور والذاهبة إلى أفق الأزمنة: إننا نعود إلى ما كُنّا نعرفه قبل كل معرفةٍ وكل وعيٍ، وذلك بوصولنا إلى ما تقول لنا كل معرفة وكل وعي إنجازه والعمل على ازدهاره:



إن نص إلى أين يسير العالم؟

مقتطف من كتاب "من أجل الخروج من القرن العشرين"،

باريز، فرنان ناطان، **1981**،

الفصل الثالث

إدغار موران

إلى أين يسير العالم؟

ساهم إدغار موران في تجديد مقولاتنا الثقافية، وفي إحداث رؤية جديدة للعالم؛ لأن مصير هوية الإنسانية هو الذي أصبح محط رهان في الأزمة الكوكبية الحالية. وأعمال موران النظرية قادته إلى إعادة النظر في مفهوم علم استشراف المستقبل. ويُحاول كتاب «إلى أين يسير العالم؟» التفكير من جديد في العلاقات القائمة بين الماضي والحاضر والمستقبل، من خلال التساؤل عن الجهة التي نسير فيها، وعن معنى «الأزمة» وعن قيمة الأيديولوجيات السياسية العتيقة أمام رهانات القرن الواحد والعشرين.

«يشكل كل جهاز عضوي من أجهزتنا جمهوريةً تتأسس من ثلاثين مليار خلية. فلماذا لا تتمكن فيدرالية مكونة من بعض مئات الأمم ومن ثلاثة إلى ستة ملايين من الكائنات العاقلة، من تنظيم ذاتها؟ وليس من المعقول، بل من الحيوي... إدغار موران».

إدغار موران

ولد إدغار موران عام 1921 وهو أحد الفلاسفة وعلماء الاجتماع في فرنسا ومدير فخري للأبحاث بالمركز الوطني للأبحاث العلمية، وصاحب نظرية التعقيد la complexité وإستراتيجية الفكر المركّب pensée la complexe وأحد المنظِّرين للمقاربة العِبْرمناهجية la transdisciplinarité ويعتبر من أهم المحللين والمنظرين للفكر المعاصر ولتاريخ الثقافة الأوروبية والعالمية. حاز موران على عدة جوائز من بينها دكتوراه فخرية في العديد من جامعات دول العالم وجائزة شارل فايون للكتاب.

أحمد العلمي

أستاذ الفلسفة ورئيس قسمها في جامعة ابن طفيل في مدينة قنيطرة بالمغرب وعضو هيئة تحرير مجلة مدارات فلسفية له العديد من المؤلفات باللغتين العربية والفرنسية في مجال اختصاصه.



الملحقية الثقافية السعودية في فرنسا
BUREAU CULTUREL SAOUDIEN EN FRANCE

مكتبة ISBN 978-9953

